الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٩ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 159.

Lundi - 20 - 7 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تلفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع البدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

«إلى صاحب السعادة المحافظ»

أمين افندى الحاوى (كاتب عمومى) له فى هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد . حفظ فى صدر أيامه كتابَىْ : (إنشاء العطار ، للمحبين والتجار) ، و (أبدع الأساليب ، فى العرائض والمكاتيب) ، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتى مما يخطر للبُكْم من أهل الهوى ، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة . ثم دخل الجندية فى (قرعة الخديو عباس) ، وهى القرعة التذكارية التى طُلب فيها لِداتُه (للجهادية) ؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كلَّ رسالة بنصف قرش . فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل ، ازداد فيها علماً بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع ؛ وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة مدة أطول ، لو لا أن خيرها الدفّاق فى يده من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه فتراكب لحمه ، وتدلى بطنه ، واستغار فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه ، فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه ، وطول يده ، وقعود همته ؛ فخرج إلى حياة (التحرير) ، وهى منذ شب حديث عبقريته ومطمح أمانيه ، واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام (سراى المحافظة) ، وألقى حيله الموهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش ، فعادت له بالشهرة الرابحة فى دنيا القضايا والشكايا والسمسرة . فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التى يحررها الحاوى ، أملاً لحرفائه فى ضمان الفوز ، ومثلاً لزملائه فى فن

الكتابة . ثم تدخّل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا السرائر ، وتبسّط على موائد الأنس ، وتفنن فى أساليب الوساطة ؛ فكان دليل « الخاطب » ، ونديم الشارب ، وسلوة المحزون ، وسمسار المشترى ، ووكيل المدعى ، وسفير الخصوم ، ورسول الأحبة . تراه أكثر النهار على مقعده الخشبى الضيق فى جلباب فضفاض من الكستور المخطط ، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل العاسلة على الخلية الضخمة : هذا صاحب مظلمة يريد عرض حال ، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو حبيبة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يرغب توكيل شام ، وذاك زميل عجلان يطلب كلة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفات فى السمة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته ، وكل سائل بجوابه . وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر ، عالم بأحداث المجامع ، خبير بألوان المطاعم ؛ فمنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ، وخصيصة كل صحفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء ، والرز نصيب الأرض من حقول السماء ؛ وفى الكبد خروق لا تسدها إلا الملوخية ، وفى الجسم عروق لا يُنبضها إلا الكنافة

* * *

من عادة أمين افندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمتّعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ، ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدّس عندنا من المجلات المقروءة . دخل علينا أمس جاداً على غير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ؛ ولم يكد يلقى التحية حتى ألقى إلىّ فى شىء من الزهو صحيفة مسطرة من ورق (العرائض) وفى رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفى ذيلها بقلم الرقعة : (ابن الحاوى) ، وقال :

كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ عن طريق الرسالة . أتنشره أم تطويه ؟

فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين افندى ؟

فقال : قرأت فى الصحف أنه ألنى (مصايف الأطفال) ، فهزنى الخبر ، وملكتنى شهوة الكلام ، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (مصايف) ، فتصبح بفضله (مضايف) ؛ والكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الكتاب فى غَمْر من أحاسيس شتى تتلون تباعاً بالاعجاب والانكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبلد ؛ ثم قلت له : إنى أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلا ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولم تعرف كيف تعبر ؛ ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب الرسالة ؟

فقال وقد طنى فى وجهه الدم ، ونزا فى رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربه الأزرق : كيف ! لقد حفظت الكفراوى ، ولزمت الشيخ عليش ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادلت الأستاذ وجدى ، وقضيت فى (التحرير) أربعين عاماً ! أفتجابهنى بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ؟ ! فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات فان أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب : « صاحب السعادة محافظ القاهرة :

« يتقدم اليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلاً صحيحاً لآلام طبقته . إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظرة أهل النار إلى أهل الجنة يضاعف ألم الحرمان ويجسم شقاء البؤس ، ولكنه على أية حال كان ترضية لكرامة الشعب

ولقد كان فى نفسى أن أطلب الى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤوى شرداء الطفولة وطرداء الفاقة ، فتنقلها بذلك من الخصوص الى العموم ، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة . فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية منطاة فى الليل القارس القاسى بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة ، تترعرع فى أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر ، والملاجئ وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فاذا كان هذا الالغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد ، فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم ؛ وأما ان كان لقلة المال أو ضعف الرغبة فقد قضيت على فكرة جميلة واعتديت على حق مقدس . . . » . . .

وكان أمين قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلاً : ما هذا ؟ أين (الديباجة) ؟ وأين ما يجب لمثل هذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تكمل ! سآخذ كتابى وأسلمه الى الباشا يداً بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الكتاب يداً بيد ، ثم صافحته يداً بيد . وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدواً جديداً من جرّاء النشر فى الرسالة

احمد حسن الزيات

أحلام في قصر (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان فلانُ بن الأمير فلان يتنبَّلُ في نفسه بأنه مشتقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تيَّاهاً صَلِفاً يشمَخُ على قومه بأنه ابن أمير ، ويختال في الناس بأن له جَدًّا من الأمراء ، ويرى من تَجَبُّرِه أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً في الملك

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفي دمهم شعاعُ السيف وبريق التاج ، ونخوةُ الظفر ، وعزُّ القهر والغلبة ؛ ولكن زمنه ضربَ الحصارَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تشييد الامارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وعَمَّر دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط ....

* * *

وانتقل الأمير البخيل إلى رحمة الله ، وترك المال وأخذ معه الأرقام وحدها يحاسَب عنها ، فورثه ابنه وأمَرَّ يدَه في ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للاحسان . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت في مكانها هذه الكلمة : يُجمع للشيطان

أما الشيطان فكان له عمل خاص في خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يلبسه ثياباً بل أفكاراً وآراءً وأخيلةً . وكان يجهد أن يُدخل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهي أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفي غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين : ألا توجد لذة جديدة غير معروفة ؟ ألا يستطيع ابليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة ؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها ؟

كان الشاب كالذي يريد من إبليس أن يخترع له كأساً تسع نهراً من الخمر ، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن . وكان يريد من الشيطان أن يعينه في اللذة على الاستغراق الروحاني ويغمره بمثل التجليات القدسية التي تنتهي اليها النفس من حِدَّة الطرب وحدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثم كان معه في جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهمّ أن يرفع يدَه عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلي مع بعض الأمراء الصالحين

وهؤلاء الفُسّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ، فهمُّهم دائماً الألذُّ والأجمل والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتُهم من اللذات الجديدة ما يسدُّها ضاقت بهم فظهرت مظهر الذي يحاول أن ينتحر . وذلك هو الملل الذي يُبتلون به .. والفاسق الغني حين يمل من لذاته يصبح شأنه مع نفسه كالذي يكون في نفَق تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجواً يطير فيهما بالطيارة . . .

* * *

قالوا : واعترض ابنَ الأمير ذات يوم شحاذٌ مريض قد أسنّ وعجز يتحامل بعضه على بعض ، فسأله أن يحسن إليه وذكر عَوَزه واختلاله وجمل يَبُثُّه من دموعه وألفاظه . وكان إبليس في تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات المتممات عليه وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتطّ بائعها في الثمن حتى بلغ به عشرة آلافِ دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدَرٌ من قادر . . . وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة في الشخص المضيء فكان إهانةً لخياله السامي ... ووجد في نفسه غضاضةً من رؤية وجهه واشمأز في عروقه دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية في هذا الدم

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه ، فاذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أمير يبحث الناسُ عن الأمير الذي فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذي فيه . وليس فيك من الامارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ في الموضع الأثريّ الخرب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة الآلاف دينار عند مومس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير .

---

(١) كتبنا مقالة (أحلام في الشارع) وهي في السنة الثانية من الرسالة

أنت أمير ، فهل تثبت الحياة أنك أمير أو هذا معنى فى كلة من اللغة ؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك ، وإن كانت اللغة فهذه لفظة بائدة تدل فى عصور الانحطاط على قسط حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت ، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظماؤه ، فقسمٌ منها فى الحاكم وقسم فى شبه الحاكم يُترجم عنه فى اللغة بلقب أمير

ألا قل للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبير الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس واتهامهم

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جَرَم أهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو

ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خَيالتُه (١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ : فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت ذلك المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيم تمرض بها ، وما علمت أن فى كل سائل فقير جراثيم أخرى تمرض بها النعمة ؛ فان أكرمته بقيتْ فيه وإن أهنته نفضها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير واستردَّ العاريةَ صاحبها وأكلت الحوادثُ مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجُهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب فاكدح لعيشك فى هذه الدنيا فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً

قالوا : وينظر ابن الأمير فاذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الامارة كانت وهماً فرضه على الناس قانون العادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكراً من المكر لاثبات هذا الظاهر والتعزُّز به . وينظر ابن الأمير فاذا هو بعد ذلك صعلوكٌ أبتر مُعْدم رثُّ الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظاً : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تدلّل أحداً لا ملكا ولا ابن ملك ولا سوقياً ولا ابن سوقى ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير

* * *

قالوا : وفكر الشاب المسكين فى صواحبه من النساء وعندهن شبابه وإسرافُه ، ونفقاته الواسعة فقال فى نفسه : اذهب لاحداهن ؛ وأخذ سمته إليها فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجُرَّ بيديه ودُفع فى قفاه . ولكن دم الامارة نزا فى وجهه غضباً وتحركت فيه الوراثة الحربية فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا وماج بعضهم فى بعض . فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتة فأبصر غلاماً قد دخل فى غُمار الناس فدسَّ يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسةَ الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه ، فتسلل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز فاذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظاً وفار دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه . وألم الصبى بما فى نفسه وحَدَسَ على أنه رجل أفاقٌ متبطل لا نفاذَ له فى صناعة يرتزق منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة فاذا دخلتَ القسم الاعدادىَّ منها تعلمت كيف تحمل المِكْتَل (١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرَق البالية من الدُّور حتى إذا سنَحَتْ لك غفلة انسللت إلى دار منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه ، ومتى حذقته ومهرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

فصاح ابن الأمير : أغرب عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! والعن الله الاعدادى والثانوى معاً

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينا هو يمشى وقد توزَّعته الهموم أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدِّين وتلك العلل التى ينتحلونها للكُدية كالذى يتعامى والذى يتعارج والذى يحدث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دم الامارة اشمأز فى عروقه

(١) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص

وتحركت فيه الوراثة الحربية ؛ وبَصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّض لمعروفه وأفضى إليه بهمّه وشكا ما نزل به ثم قال : وإنى قد أمَّلتك وظنى بك أن تصطفيني لنادمتك أو تلحقنى بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فان لم تبلغ بى فالقليل الذى يعيش به المُقِلّ . وصعَّد فيه الشاب وصوَّب ثم قال له : أتحسن أن تلطُف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة فى هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . . ؟

فانتفض غضباً وهمّ أن يبطش بالفتى لولا خوفُه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمّل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعتْ به ظِنَّةُ التلصُّص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطى فمضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعاً

قالوا : ومر فى طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفُجل والبصل والكرات وهى بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستغواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو فى هذا الباب خرّاجٌ ولاّجٌ منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو فى عينيه ، ثم هرَّت فى وجهه هريراً منكراً واستَعْدَت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث ، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى فى غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضُرب وحُبس وابتلى بالجنون وأرسل الى المارستان وساح فى مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما يعى وما لا يعى ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه

***

ويا ليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدرى ! فان الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصفع .....

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

فوز نسوى جديد

ملكات ووزيرات

بين الماضى والحاضر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهى ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب فى عصرنا

ويقدم الينا التاريخ منذ العصور الغابرة ثبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وألقيت اليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة ، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ فنى مصر الفرعونية ، وفى مملكة سبأ ، وفى تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة ؛ وفى مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هى كليوباترا تحاول رد الغزو الرومانى عن مصر ، وتفتدى الهزيمة بالحياة ؛ ثم نرى فى عصر الاسلام ملكة مصرية هى شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبى ؛ ونرى فى الغرب ، وفى العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير أعظم الأمم الأوربية مثل ازابيلا ملكة قشتالة ، ومارى تيودور واليصابات ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا

وفى أيامنا تتبوأ عرش هولندة أميرة عظيمة هى الملكة ولهلمينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التى وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل فى عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التى يتمتع بها الرجل ، فاذا ظفرت ببعض هذه الحقوق فى بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيما لقضيتها

وقد وقع أخيرا فى فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيما للحركة النسوية ؛ ففى الوزارة الفرنسية الجديدة التى يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مراكز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية ، ومدام ايرين كورى العالمة الكيميائية

الشهيرة ، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التى اشتهرت بجهودها فى سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة فى تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسى الوزارة ؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لا زلن كباقى نساء فرنسا ، محرومات بنص الدستور من مزاولة أبسط الحقوق العامة ، أعنى حق الانتخاب ، وهو حق تجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت ، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا فى هذا الميدان عن باقى الأمم الديموقراطية العظيمة مثل انكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة ؛ وفى البرلمان الانكليزى اليوم عدد كبير من النسوة النائبات ، وفى الوزارة الانكليزية القائمة سيدة هى مس بونفيلد وزيرة العمل ؛ وفى أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم فى كثير من الولايات ، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية ؛ وفى روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التى يتمتع بها الرجل ، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة فى سائر الادارات والمجالس السوفيتية ، وأحياناً تشغل منصب السفارة ، مثل السيدة الكسندرا كولانتاى ، التى لبثت مدى حين سفيرة للروسيا فى المكسيك ثم فى السويد ؛ بل نرى المرأة تفوز فى بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة ، كما حدث أخيراً فى تركيا

***

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيماً لجهود المرأة ، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة ، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها ؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانيها ومطالبها ، فغزت جميع ميادين الحياة العامة ، ونفذت إلى معترك الوظائف والمهن الحرة ، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعى بسائر أنواعه ، ولم تعد تقتصر على مزاولة المهن السلمية الهادئة كالطب والمحاماة والصحافة ؛ بل غدت تنافس الرجل فى أشق الأعمال وأخطرها ، كالهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية ، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل ضربا من المستحيل

ولكن المرأة ما زالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا ، وعن مواطن المسئولية العامة ؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز فى بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة ، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة ، فانها ما زالت بعيدة جدا عن التأثير فى سير السياسة العليا ، وسير التشريع القومى ؛ وما زال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيدا عن تدخل المرأة أو اشرافها . وقد تمضى أجيال أخرى قبل أن تستطيع المرأة أن تغزو هذا الميدان غزوا حقيقياً ، أو أن تساهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ؛ فقد أتيح للمرأة ، فى كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم ، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا ، ولكنها تحرم فى عصرنا ، وهو عصر تقدمها وظفرها ، من تبوىء مناصب الحكم والمسئولية . وبعبارة أخرى ، فقد سبق فوز المرأة بالملوكية ، فوزها بالوزارة أو ما عاثلها ؛ بيد أنه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية ؛ ذلك أن فوز المرأة بالملوكية لم يكن راجعاً فى عصر من العصور إلى مواهب ومزايا خاصة تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير ، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث ؛ وقد كانت حقوق الأسرة فى الملك تتشح فى العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الالهى ، وفى ظل هذا الحق المزعوم الذى كانت تقدسه الشعوب فى تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الانصاف أن نقول إن المرأة استطاعت فى ظل الملوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة ، فانه يجب ألا ننسى أن وجودها فى هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعى ، ولم يكن نهاية فى تطور النضال بينها وبين الرجل ، وإنه لم يكن أكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما بينا

على أن المرأة لم تقف فى توجيه العروش والسياسة عند هذا الموطن الذى ارتفعت اليه فى ظل الأسرة والحق الالهى ، بل استطاعت فى ظروف كثيرة أن تصل بقوة عزمها ونفوذها إلى التأثير المباشر فى توجيه الدول والحكومات ؛ ويقدم لنا التاريخ

أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء . ولم يخل التاريخ الاسلامى نفسه من أمثلة من هذا النوع ؛ ففى تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هى صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد ، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام ، وتؤثر فى سياسة القصر والدولة ؛ فاذا توفى الحكم نراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ . وفى دولة بنى عباد باشبيلية ، نرى جارية أخرى هى اعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة اشبيلية مدى حين . وفى أواخر دولة الاسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هى ثريا زوجة السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التى انتهت بسقوط غرناطة فى أيدى النصارى . ويقدم الينا التاريخ الأوربى نماذج عديدة مدهشة من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة ، ونكتفى بأن نقدم من ذلك مثلين بارزين : أولهما مثل المركيزة دى بومبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وقد خلت فى البلاط مكان الملكة الحقيقية ، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة ، تولى وتعزل ، وتأمر وتنهى ، وتؤثر فى توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير ، وتقبض على مقاليد السلام والحرب . والمثل الثانى هو مثل البارونة ربارة فون كريدنر ، وهى سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدة لتعتنق حياة الزهد والتصوف ، وقصت علينا حياتها الأولى فى كتاب عنوانه « فاليرى » ، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرة وهى تحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا ، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول ، فأثرت فى نفسه تأثيرا عظيما واستولت على مشاعره وتفكيره ؛ وكان يقضى معها كل يوم ساعات عديدة فى الصلاة والشورى ؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة الغريبة فى عقد « المعاهدة المقدسة » الشهيرة ، التى عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة ١٨١٥) وغرضها الظاهر تنظيم العلائق الدولية طبقاً للمبادئ المسيحية ، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب ، وغرضها الحقيقى مقاومة النزعات والحركات الحرة ؛ وكان للبارونة فون كريدنر فى الحث على عقدها أعظم أثر ، كما أنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية العديدة توضح لنا إلى أى مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ فى الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة ؛ بيد أن هذا الفوز الذى يرجع دائماً إلى عوامل وظروف عرضية ، لم يكن ثمرة نضال أو تطور طبيعى ؛ أما اليوم فان المرأة تسير فى ميدان النضال بخطوات حثيثة ، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفرا بعد ظفر ؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسى النيابة والوزارة ، فذلك لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب ، وأن تدلل على أهليتها لتوليها ، فهى إذن تسير فى طريق طبيعى لا أثر فيه للطفرة أو العوامل العارضة التى رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحلم بها

ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذى يكاد يعتبر فوزاً رمزياً فقط ؛ ومن المحقق أنها ستعتز بهذا الفوز على ضآلته فتضاعف جهودها ؛ وإذا سارت الحوادث فى طريقها ، وإذا لم تعقها العوامل والمؤثرات الرجعية ، فان المرأة ستصل فى المستقبل القريب فى تحقيق أمانيها إلى مدى يصعب اليوم ادراكه وتقديره ، وإن لم يك ثمة شك فى أنه سيكون عظيما بعيد الأثر ؟

محمد عبد الله عنان

هنرى روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

إلى المحاماة ، فى شخص المحامى الأول ،
والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوى بك

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

ولكن ما الذى يقوله هنرى روبير فى تلك القضايا التى سلخ المحقق فى تحقيقها عاماً كاملاً ، أو التى اسودت فيها آلاف الصحف ؟ للجواب على ذلك نقول إن هنرى روبير كان يجيد عدم الكلام بقدر ما كان يجيد الكلام ، فهو يعمد أولاً إلى المسألة التى تحكم القضية — إذا صح هذا التعبير فى لغتنا العربية — فيظهرها على طريقته بقوة وبسرعة وإيجاز ، ثم يسقط من كلامه أكثر ما فى القضية من حواش تنأى به عن الجوهر ؛ فهو يدرك كل الادراك أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما فى الأضبارة ، بل الفن الحقيقى هو ترك ما يجب أن يترك فيها ؛ وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تماماً فن الكلام ... ولذلك كنت تجده مسرعا ، ممتعاً ، مقنعاً ؛ كل ذلك فى وقت واحد

كان يقول إنه درس « لاشو » دراسة عميقة ؛ لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه ، فمرافعات روبير كانت مرافعات موضوعية مجردة ، لا تتخللها الجلجلة ولا الصوت الداوى ، ولا الصور التاريخية ، ولا العبارات البيانية الخلابة التى يتشابه فيها لاشو مع أستاذ ذلك العصر « فكتور هوجو » . والحق أن تلاميذ لاشو لم يكن منهم نقيبنا الذى نتحدث عنه ، بل إن لاشو قد خلف من بعده باربو نابغة الفن التقليدى فى الدفاع ، ولابورى ، المهيب الذى يُرعب بقدر ما يستطيع الاقناع ؛ أما هنرى روبير فلم يكن يهمه رسم الصور ، ولا طلاء اللفظ ، ولا طلاوة الأسلوب ، ولا تفخيم المعانى ؛ فاذا جاءت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع وجدتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال ، ووجدتها من لباب القضية لا مترددة بين الحواشى لتثير الاعجاب

رحمه الله ! ألا فليقل لنا إن كان حقاً قد تتلمذ لأستاذ القرن الماضى — بعد بربيه — هل هو كان يرى أن يقول للمحلفين تلك الكلمة المسرحية أو الخطابية التى قالها لاشو فى سنة ١٨٥٥ وهو يترافع عن روداف المتهم بدس السم إلى عشيقته « ميمى » : « ها إن السماء تدوى لكأنها تكاد تنقض ؛ إنكم تسمعون هزيم الرعد وعصف العاصفة ! ... إن السماء تزمجر سخطاً على ما على الأرض من اعنات ... إنها تحتج معى على تلك الاجراءات !! » . أو تلك الكلمة الهائلة التى صوبها إلى القضاة فى مرافعته ضد الجنرال « تروش » بعد حرب السبعين ، وكان تروش قد تهاون فى قضية الأمبراطور ، وكان الأمبراطور قد خُلع ، وكان الأمبراطور صديقاً شخصياً للاشو ، قال : « ... إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال تروش ... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم !.. وسيقرأ التاريخ كل ما دار فى هذه الجلسات .. فحذار أن تضحوا كل شىء مرة واحدة .. فيقول بنو الأجيال المقبلة : إن كل شىء فى هذه الأمة قد ضاع « حتى العدالة نفسها ! » لم يكن روبير ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع ، لأن وظيفة المحامى عنده كما قال : « أن يُقنع لا أن يلمع » ، ولأن الدنيا تغيرت ، والمحاكم ضاقت ، وصدور القضاة والحضارة نفسها أصبحت معجلة كأنها تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا ...

إنما تلاميذ لاشو ولداته هم أولئك الذين يقولون مثلما قال باربو عن دلسبس : « ... ذلك الانسان الذى أضاف بعض الـ « رتوش » إلى صورة الخليقة كما أبدعتها يد الخالق ... » أو مثل فكتور هوجو وهو يترافع عن ولده شارل ضد عقوبة الأعدام « .. هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جماته يشك فى وجود الانسانية ، فاذا وقعت على برىء جملته يشك فى وجود الله !.. » أو مثل فكتور هوجو أيضاً وهو يترافع فى هذه القضية ، وإذا شئت فقل مثل النمر — الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى — أعنى كليمنصو عند ما ترافع عن أميل زولا عقب لابورى ، فنقل عن هوجو تلك الاشارة البديعة إلى تمثال المسيح ، وكان إلى ذلك الوقت يوضع خلف هيئة المحكمة فى الجلسات وقال : « انظروا وراءكم ، فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة ! ! ... ... وكانت قضية أميل زولا تدور حول إعادة

النظر فى قضية دريفوس ؛ أو الهلباوى مثلاً فى قضية نزاهة الحكم ، وبتلك الوثبة الذهنية البارعة ، بل تلك الأعجوبة الرائعة الخالدة ، عند ما رد حفنى بك محمود أحد المستشارين لشبهة عرضت له فرفض الرد وأخذ الدفاع عن الخصم يعيِّر حفنى بك بأن رده رفض وبأنه يتشكك حتى فى القضاة ، ويتهم حتى رجال العدل ، قال هلباوى بك « . . . فلما عرضت له الشبهة فى قاضيه لم ينخلع فؤاده فَرَقاً ، بل أقدم على أن يطلب الحقيقة عارية والعدالة مجردة ، ليطمئن قلبه ؛ وقديماً ، وفى سبيل الاطمئنان قال موسى : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . .

فالاطمئنان الذى نشده موسى وظفر به ، هو الاطمئنان الذى نشده حفنى وظفر به ! والذى حصل من حفنى حصل من إنسان أسمى منه ألف مرة ، وبالنسبة لمن ؟ بالنسبة لمن هو أسمى من سعادة المستشار لا ألف مرة ، ولا مليون مرة ، ولكن بمقدار الفرق ما بين الانسان وخالق الانسان . . !! »

لا تجد لذلك التصوير وأشباهه نظائر عند هنرى روبير ، لكنك تجد له خواطر ممتعةً تستحيل عند تلاوتها إلى حجج موضوعية فى القضية المطروحة . ومثل ذلك ما نقلناه من قبل فى ختام مرافعته عن بوبوروش ؛ ومثل ذلك أيضاً ماجاء فى مرافعته عن الدكتور لابورت فاستمع إليه يوجه نظر القضاة إلى الأطباء : « ... انظروا إلى تلك الغرفات الفساح فى المصحات والمستشفيات حيث الهواء مشبع بسموم الدفتريا وجراثيم الطاعون ، وانظروا إلى أولئك الرائحين الغادين فى تلك الغرف أمام مرضى ينفثون الموت الزؤام من الشهقات والزفرات ؛ هل علمتم على واحد منهم أنه أجفل أو أنه ارتمد ؟ هل تردد واحد منهم عن القيام بكل ما يفرضه عليه الواجب ؟ ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والكوليرا ، واسألوا كم من هؤلاء الفرسان قد سقط فى ساح الشرف ! انظروا إلى هذه الطائفة وقولوا هل هى الطائفة المتمردة على القانون والتى يجب أن يضرب على أيديها ضربات البطش والانتقام ! . . لا . لا . . إنكم ستجدون هؤلاء البنين البررة للعلم وللفن وللانسانية قد وهبوا نفوسهم للعلم وللفن وللموت فى سبيلهما ؛ فهم تارة يصرعون الموت وتارة يصرعهم ، لكنهم يستحقون الاعجاب فى كل حال !! . . »

وكانت له وثبات فى الارتجال يتناقلها الكافة ؛ فمثل ذلك رده على النقيب دربيه الذى جاء فى صدر هذا البحث ، ومثله ما رواه « جو لاندن » فى (أشهر قضايا سنة ١٩٣٢) ولقد كان توريز المحامى الأشهر يدافع بجلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ أمام استئناف الجنح عن موكله (ڤرمون) ضد (تاكوشيا) موكل هنرى روبير ، وكانت التهمة نصباً موجهاً ضد ڤرمون ، وكان هنرى روبير محامى المدعى المدنى ، وكانت نظرية توريز أن تاكوشيا سبق أن نصب على ڤرمون فجاء ڤرمون وأصلح ما أفسده عليه تاكوشيا ، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية تخلب الألباب قال : « ... لقد كانت رواية : أما الفصل الاول فتاكوشيا يضرب ڤرمون ، والفصل الثانى ڤرمون يضرب تاكوشيا . . . » وبينما هو يسترسل نادى هنرى روبير بصوت ضخم : « . . . الفصل الثالث : المحكمة تضرب ڤرمون !! . . »

كان زعيم الارتجاليين كما قلنا ، فما هو الارتجال إذن ؟ أما ارتجال الفكرة فمجازفة بحقوق الناس ، ووصمة للمحاماة ، واستهتار بالقضاة ؛ وأما ارتجال الألفاظ فذلك شىء آخر ؛ والمحامى الذى يرتجل الكلام هو الذى يملك أعنة البلاغة ، أو هو الذى حضر مرافعته مرات ومرات ، أو هو الذى تمرن على مواجهة الاحداث ومجابهة ما يفاجئ ؛ وإذن فهو لا يرتجل وإنما هو يستخرج ما فى مواهبه من كنوز غائرة تظهرها الحاجة ، فهذا تحضير غير مباشر ، وهذا هو بالطبع ما عناه شارل شنى فى محاضرته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١ ، إذ حدثهن عن حياته الأولى فى المحاماة قال : « ... وكنا جميعاً نساهم بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة الشائعة وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا فى تحضيره طول الليل وأثناء النهار . . !! » وفى أواخر القرن الماضى أشار محام — كان عضواً فى مجلس النواب — إلى أن القضاة سيسمعون من (باربو) مرافعة أصلها مكتوب ، فصرخ باربو بصوته الداوى : « نعم إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى لتحضير ما أقول ، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويملأونه بالتناقض يجدون صدوراً رحبةً فى ساحةٍ أخرى . . » وكانت الساحة الأخرى طبعاً مجلس النواب

كان هنري روبير يوصي المحامين دائماً بالاطلاع والاستعداد؛ كان يوصي بالقراءة دائماً وبالكتابة دائماً؛ كان يقول مثلما قيل من قبله: إن سر النجاح هو «أولاً: العمل، وثانياً: العمل، وثالثاً: العمل» ولقد يكون المحامي موهوباً وكله كفايات، فإذا لم يجدد نفسه ويزوّدها بالمعلومات وجد نفسه بعد سنوات أجوف فارغاً يردد اليوم ما يردده غداً. حدثنا النقيب بايان عن شني وبارو أنهما قضيا نحو العشرين عاماً في زاوية من زوايا المحاماة لا يعرفها اشعاع النور؛ وفي تلك الأثناء كانا، وخاصةً بارو يتسلحان بدراسة عميقة للعلوم والتاريخ؛ حتى إذا انقضى ثلث قرن كان بارو يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هي آية الآيات في المحاماة بل في الأدب الكلاسيك؛ ولكن روبير قد عرف الشهرة في مستهل حياته فهو لم يكن ينعم — أو يشقى — بما سماه الفراغ الاجباري للمحامين، ولكنه مع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم. وإذا رجعت إلى مؤلفاته وخصوصاً قضايا التاريخ الكبرى، تلك القضايا التي تعتبر القضية الواحدة منها دنيا كاملةً في قرن كامل، عندئذ يتضح لك مبلغ ما أخذ به روبير نفسه من نصيحته للمحامين

إلى هذه الكفايات العظمى كان يضيف كفاءة خاصةً هي الخلق العظيم: هي التواضع. وقدْماً قال «لاروبير» (إن التواضع مع الكفاءة، كالظلال مع الصورة، تظهرها وتوضحها وتجلّيها)

هكذا كان رجلنا مع رجال القضاء ومع الزملاء

هو قد سلخ قرابة نصف قرن يترافع أمام القضاة والنواب، ومع ذلك لم نسمع له بحادث واحدٍ كلابوري الذي أسلفنا عنه القال، أو كفيفياني حتى قُدِّم للمحاكمة وأوقف مدةً لم تكد تنقضي حتى صار وزيراً للحقانية!! ثم صار رئيساً للوزراء! أو أميل أوليفيه، أو كأسلوب «بريه» عندما ترافع في قضية الثلاثة عشر فقال للنائب العام: «.. لا لست حسن النية في هذا الذي تقول؛ إن القوانين لا تطبق في هذه الأيام ولكنها تفسر دائماً بما لا تحتمله؛ إن النصوص تُرهق كما يُرهق بها الرجال..!» ولا كأسلوب ڤولتير عندما قال عن قضاة كالا: «.. لا تذكروني بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة!» ذلك لأن هنري روبير كان يعرف أن جلال المحاماة من جلال القضاء، وأن شخصية القاضي جزء من معنى القضاء

لا ينفصلان. أما مع الزملاء فكان خير الزملاء، عطفاً وأدباً وحسن وفاء. إليك مؤلفاته جميعاً، كلها ذكريات حلوة عن الزملاء والأساتذة. هذه أعذب العبارات يكتبها عن أستاذه دربيه؛ وهذه أمداح تترى للنقيب مارتيني، وتقدير لا حد له للخالدين بوانكاريه وبارتو، ولد بوى وملران ولابريان ذي الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد له بلابوري، وحب لشارل شني، وإكبار لبارو وروسو الخ. هذا الثبت الحافل من الرجال الذين تتردد أسماؤهم في مؤلفاته. حتى إذا راودته المنية عن نفسه استمهلها ليكتب سطوراً لم تحل الوفاة بينها وبين الناس لملأها مدحاً للقضاة ولرجال المحاماة في الأمس الدابر، وللمحاماة نفسها، تلك الآلهة التي طالما قدسها، تلك الغانية التي طالما عبدها وأخلص لها الحب والعبادة بل التي ملأ الوجود الانساني بكلام عنها يُشبه الألحان

* * *

وبعدُ: فما هي المحاماة؟ «المحاماة أسمى مهمة في الدنيا» كما قال ڤولتير وكما قال أيضاً «كم كنت أرجو أن أكون محامياً» بل هي كما قال ماكس باتو «إن المحامي ملك»؛ ليست هذه العبارات لوحات أدبية معلقة؛ لكنها حقائق قائمة منتزعة من صميم الواقع؛ فانظر إلى المحامي وهو يترافع؛ لا إلى (بريه) وهو يترافع عن ملك مستقبل ضد ملك قائم، وعن ملك مخلوع ضد ملك منصب، ولا إلى مالبرب وزملائه وهم «يحملون إلى الكونشاتسيون الحقيقة ورأسهم» دفاعاً عن لويس السادس عشر، ولا إلى الهلباوي وهو يترافع في آخر القرن الماضي عن البرنس سيف الدين ضد ملك، وفي ١٩٣٣ عن البرنس محمد علي ضد من؟ أو في سنة ١٩١٤ عن خيري باشا ومحرم باشا ووراءهما من كان وراءهما؛ ما إلى هؤلاء قصدت ولكن إلى المحامي الصغير — أعني الشاب، فليس في المحاماة صغير وكبير، بل فيها شاب ومكتهل — إلى المحامي الناشئ وهو يقف أمام المنصة، في محكمة الجنح أو أمام القاضي الجزئي؛ هو ذا يدلي بمرافعته بين الاحترام العام دائماً أو الاعجاب العام في بعض الأحوال، كلماتٍ متزنة، وعباراتٍ واضحةٍ كلها إخلاص؛ مسموع الصوت مسموع الكلام، لكأنك به في ردائه الأسود، الكاهن الجليل في ساحة المعبد؛ الأعناق مطمحة إليه؛ والآمال معقودة عليه؛ ففي يده مستقبل

أسرة أو ثروة فقير أو كرامة رجل أو عرض غانية ؛ ولقد يكون المحامي في سبيل الدفاع عن موكليه قد ضحى ما ضحى ، أضعاف أضعاف ما كسب ، وهو قد يكون تقدم الى الدفاع كما كان يتقدم أسلافنا الأولون ، بدافع النجدة والمروءة وفي سبيل الشرف لا في مقابل المـال ؛ هو ذا يقف ببسالة أمام الطغيان ، طغيان الأفراد أو طغيان الطبقات أو طغيان الأمة أو طغيان الحكومة ذاتها ..

إنك تكاد تحسب عنـدئذ أن المروءة والبسالة قد اتخذتا شكل رجل يتكلم ، حتى إذا انتهى من مرافعته أملى التاريخ إملاءة بسيطة ليسمع كلمة القضاء أو كلمة القدر

انظر الى المحامي في تلك الصورة المصغرة التي رسمناها ، وقل لنفسك مع ما كس باتو « إن المحامي ملك »

ولـكن — أيها الاخوان المحامون — إذا كان حقاً أن ليست هناك مهن وضيعة ، وانما هناك أشخاص وضيعون فان ثمة حقيقة أخرى هي أنه ليس هناك مهن رفيعة ، وانما هناك رجال يرفعون من شأن المهنـة . فاعملوا إذن على رفع مستوى المحاماة دائماً باستمرار : اعلموا أن الحياة المـادية ليست هي المطمح المسامي لمن لبس هـذا الرداء الأسود ، بل إن هذا الرداء كما قال الهلباوي في مرافعته عن الورداني إنما يذكرنا بأننا قسيسون في معبد العدالة نشاطر الناس لواعجهم وأشجانهم ؛ وكلـما سمت المهنة سما بها بنوها عن الابتذال ؛ واعلموا أن نصف الوزراء في الحياة الديموقراطية لا يعيشون بعد الخدمة إلا عيشة الكفاف . اعلموا أن المحاماة رسالة وليست تجارة ؛ وأن السعيد من استطاع أن يفهمها على غير أسس المـال ؛ هاتوا صحائف التاريخ تشهدوا الثروات تتدفق على المحامي دائماً بعد أن يكون قد قام بواجبه في سبيل الشرف أو في سبيل الصالح العام ؛ تشهدوا المـال يلاحق المحامي بعد أن يكون قد أدى رسالته في خدمة المظلومين أو في مدافعة الطغاة ؛ تشهدوا المحامي العظيم لا يسعى الى المال وانما يسعى الى الشرف ، وكلما أعرض عن جمع المال انحدر اليه المال من كل ناحية . فالسعيد منكم من استطاع أن يفهم المحاماة على أنها مهمة ومهنة ؛ فاملأوا نفوسكم بالقناعة ، واملأوا أذهانكم بالعلم ، واملأوا فراغكم — الاجباري أو الاختياري — بالدرس وبالتحصـيل وبالسعي المطرد نحو الـكمال

وأنتم أيها المحامون الشبان : اسمعوا ! إن المحاماة في مصر لم تصل الى أزهى عصورها بعد ؛ فأنتم إذن أملها المرموق بالعناية . اكتبوا دائماً ، واقرأوا دائماً ، وتعلموا حسن الأداء — فالمحاماة في الحقيقـة ليست إلا حسن أداء — واذكروا أن الحيـاة الديمقراطية قد ذللت لـكم كل شعاب المجد ، وفتحت لـكم الأبواب على مصاريعها ، فأدوا رسالتـكم على خير وجوهها ، وكونوا دائماً شجعاناً ؛ وأضيفوا الى مبادئكم أن خير ما علمنا أساتذتنا هو أن احترام المحاماة من احترام القضاء ، وأن خير ما يكسب به الدعوى هو سلامة الأسلوب ونزاهة الغاية

اذكروا أن رئيس محكمة النقض السابق كان رئيساً لنقابتكم ، وأن رئيس نقابتـكم السابق هو الرئيس الثاني في الدولة بعد رئيس الوزارة ، واذكـروا أن رئيس الوزارة اليوم بل صـاحب الرياسات جميعاً ، كان وما يزال محامياً منكم . واعلموا أخيراً أن هؤلاء الذين شاركوكم كزملاء لا كرؤساء سيعود اليكم منهم من يعودون ليتشرفوا بحمل ذلك الرداء الأسود الذي يساوي كلمة الدفاع ، ذلك الرداء الذي كان يحمله بوانكاريه وملران بين رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة مثلما كان يصنع ڤيڤياني ووالدك روسو ومثلما يصنع عبد العزيز فهمي ومكرم عبيد

كم كنت أود لو نقلت إليكم تلـكم الخطبة الخالدة التي ألقاها المستشار «داجوسو» من نحو مائتي عام في المحامين والمحاماة ، ولـكن المقام ضاق فاليـكم منها تلـكم الخاتمة :—

« .. حسبكم جزاء على آلائكم العظمى التي تسدونها الى الناس هذه العظمة وذلـكم الجلال ، وألا تكونوا مدينين بالعظمة وبالجلال إلا الى أنفسكم . حسبكم أن يتخذ منكم الناس مثلمـا اتخذوا من أسلافكم من القادة والهداة والرسل ، وأن ترتفعوا الى تلـكم المكانة العليا فوق الـكافة فتتولوا صرف المنازعات وفض الخصومات ، تتولوا القضاء الفعلي بين الناس كما يتولاه القضاة الموظفون ولـكن بما لـكم من سمو الغاية ونزاهة القصد ونصيب ضخم من الاحترام العام وبمـا لـكم من نفوذ الـكلمة وبلاغة التأثير وجلال العبارة . . . . فهل أنتم إذن ستكونون لأنفسكم أداة تقدم لا عوامل تنفتل بكم الى الوراء ؟ . . هل ستكون هذه المحاماة التي طالما عملت لمجد الأمة ، وكم ستعمل في سبيلها ؟ هل ستكون عند رجائنا فيها فتحتفظ لنفسها بمنزلتها الرفيعة العليا بين المهن ، بالفقه وبالبيان ولـكن بالعدل والنزاهة أيضاً ؟ . . »

صوتُ الجَبَـــل *

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

للأستاذ معروف الأرناءوط

« . . . لقد قال لها إن الجبل يناديني يا «سافو» ... ثم رفع صوته قائلا : إن الله قريب مني وإني لأراه في هذا النور الذي يطفو على «سيناء» ! وفي هذا الفتون الذي يراق على بادية التيه ! »

قال « كريستيا » « لسافو » وقد اطّرح الدير في الليلة الجوناء وهبط « وادي العربة » تاركا وراءه قنن جبل « حور » : ناشدتك الله يا أخية أن تسمعيني شيئاً من حوار «أوديب» حينما اشتملت عليه جبال وطنه ، فانه ليروق لي وقد شابهت هجرتي هجرته وماثلت شجوني شجونه ، وحاكت ليالىّ لياليه ، أن استمع لجرسه الشجىّ في هذا الوادي المصحر ... إنك لتتذكرين خروج هذا الملك في ذات ليلة الى جبال « كولون » ومعه ابنته « أنتيغون » فلما أظلته السحب وأرزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته في رفق وحب وسألها أن تذكر له اسم الأرض التي وطئها وقال لها إنه يحب أن يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته في المنفى ، فطفقت «أنتيغون» تتحدث إليه عن وطنه الجديد ، فرق وسكن ولطفت أحاديثها حزبه . نعم حدثيني يا « سافو » عن « أوديب » وعن « أنتيغون » فاعا أنا ذلك التعس « أوديب » ، وأنت « أنتيغون » رفيقته في أرض المنفى ، ولكن سافو كانت تفكر في « فروه ابن عمرو وفي المعركة التي نهد اليها برجال حصدت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب «قيصر» أن يستبقوا الحياة الى ليال فلقد تتعاورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية ويمنعهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الأودية ومسارب الطرق من الافلات . فتضيق بهم « سلع » ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد :

لقد كانت تفكر في هذا كله ساعة أرادها الشاعر المثال على قراءة قصة « أوديب » الملك ، فلما لم تسمعه صوتها تغنى بشعر « سفوكليس » وحسب نفسه وهو يطأ الجبل أنه ذلك التعس « أوديب » فقال بصوت شجي يشبه الرثاء :

أوديب

« أنتيغون ، يا ابنة ذلك الأعمى الشيخ ، ناشدتك الله إلا ما حسرت لي عن هذا البلد الذي بلغنا نواحيه ، وأىّ شعب هذا الذي نزلنا منازله ، ومن هم جيرتنا في البلد النازح ؟ في هذا اليوم يستجدي « أوديب » الهائم السادر الناس ، فيعطيه هؤلاء عطاء حقيراً ، بلى لقد طلبت قليلاً وأعطيت يسيراً ، وفي هذا غناء لي وكفاء ، فقد علمتني الآلام والأهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسي الصابرة : علمني كل أولئك الاستسلام والرضى ، فهلمي يا بنية ، هلمي إلى فلاة تحت مقعداً في مكان رجس أو في غاب مقدس فقفي بي عنده وانزلي بي في أديمه ، ثم لا يضيرني ولا يضيرك أن نمضي إلى الناس فنسألهم الطريق وفي أىّ موضع منه نحن ؟ فاننا غرباء عن الديار ومن حقنا أن نسأل الغادي والرائح »

ولكن سافو لم تفعل ما فعلته « أنتيغون » ، ولم تدله على المكان الذي نزل فيه فانثنى هامساً بمثل ما همست به « أنتيغون » في أذني أبيها البائس :

* الفصل الثالث والثلاثون من الرواية الخالدة « عمر بن الخطاب »

أيها الزملاء ! كلمة أخيرة

إن نقيبكم العظيم المضطلع بشتى شؤون الدولة يكاد يقول مثل « الملك الشمس » « أنا الدولة » فأهيبوا به أن يذكرنا . . . . وعند ما يصدر القانون ، وتتقرر حصانة المحامي في الجلسات ، يومئذ تلمسون بأصابعكم ما قاله ماكس باتو من أن المحامي ملك ، بل وتضيفون إليه أيضاً أن المحامي مَلَك

عبد الحليم الجندي

مراجع البحث : مؤلفات هنري روبير L'avocat; Les Gands Procés de L'histoire; Un Avocat de 1830; Souvenirs du Palais de lPa Ville. Modèls Francais IV, Edmond Procés

Anthologic des Avocats Français contemporains : Fernan Paiyan Leurs Maniere. Bernard Gasset

مؤلفا الأستاذ الجداوي (المرافعة ومرافعات) Can dide 21 mai 1936

محاضرة لويس بارتو ومحاضرة شارل شي في Uuiversite des Anneles 1937

المنشورتان في جريدة Jaurnal de L'universile سنة ١٩١١ des Annalis

أنتيغون

أوديب ! أيها الوالد التعس ، يا من أضناه الألم ، وأذبله الداء ! ليخيل إلىّ أن سور مدينة قد ارتسم فى الأفق أمام عيوننا ، وهذه الارض التى نزل فيها لا يزال عليها عبقٌ من قداسة ونفاسة ، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهذه الأدواح الظليلة ، وهذه الينابيع الرقراقة ، ثم هذه البلابل التى تغنى فى الغاب الوارف . اطو يا أبتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الواعر ، فلقد طال شرودك ، وامتدت المسافات بك ، وانت ذلك الشيخ الذى لا يستطيع إمعاناً فى صعود وفى هبوط

أوديب

بلى ، بلى ، دعينى أجلس ، واسهرى على الأعمى العاثر الجدّ (١)

***

وراح « كريستيا » جالساً على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندّى عرقاً وعيناه ترعشان فى كلّ ناحيةٍ من نواحى هـذا الأفق المديد الفسيح ؛ وجلست « سافو » بجواره وفى نفسها أثر من جراح نفسه ، ثم لم تلبث أن رقّت له رقّة أليمة ، وأخذت بده وقالت له : أتدرى أين مسكنك ؟ قال لا ، قالت فى « وادى العربة » هـذا الذى يفصل « البحر الميت » عن « خليج أيلة »

وكان قد أمضى بعض ليله على روابى جبل حور ، فلما نزل فرع الوادى لم يشعر بالمسافات الطويلة التى خلّفها وراءه ولم يعطن إلى ثوبه الذى مزّقته الصخور والادغال المتشابكة ولم ينتبه إلى الاعياء الذى تعاور « سافو » وكذلك ما كان يهمه أن يحتويه المكان القارع ، فلقد جلس على الصخر فى سكينةٍ ودعة ، وجعل يقلب عينيه فى الجبال التى تحيط بالسهل من الشرق إلى الغرب وقد خلعت على الوادى ظلاً شاحباً فبدا عميقاً كأنه هوّة من هوّات الجحيم !

وكان من أحبّ أمانيه أن يتعرّف إلى طريق البحر الميت والأردنّ ليلحق بحسناته « بنيامينا » ويقضى ما تبقّى من أيامه فى الأرض التى نبت عنها الشهرة واطّرها المجد فما يردد نظراته فى جنوب الوادى حتى يكرهه ويمله وحتى يعاف أن يحدّق اليه ، وذلك لأنّ فى جنوب وادى العربة طريقاً تدفع إلى خليج أيلة ، إلى ذلك البحر الذى لا تفارقه سفن « هراقليوس » وفلكه ثم يحلّق وهمه فى طريق الشمال فتتمثل له الأرض منحدرة هابطة إلى البحر الميت وإلى الأردن فيرق ويتشاجى ويذكر « بنيامينا » النازلة شواطىء النهر المقدس ثم يتلفت إلى « سافو » ليسألها أن ترافقه فيرى إليها نائمة حالة فيمنعه حبه لهـا وبره بها أن يبتعثها على استفاقة تخرجها من أحلامها الهادئة ثم يعود فيستعرض وادى « العربة » من مكانه على الصخر ، فاذا امتدت نظراته من الشمال إلى الشرق استبحر المكان أمامه وعرض له أخدود راعب يتساقط المـاء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤله أن ينبطح السيل فى مفاجر الوادى ومرافضه فيضع يده على رأس « سافو » النـائمة الحالة فتستفيق وتنهض وتدير لحاظها فى تلك الأرجاء الفيحاء ثم لا تلبث أن تدرك مأساة حياتها ، وتزيدها غماً ويأساً أن يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذى يغشى جروف « العربة » وفلوجه ومسايله ومنحدراته ، ولمـا أرادها « كريستيا » على اصطحابه فى طريق البحر الميت لم تجد معدى عن مجاراته ومسايرته ، فوقفت على الصخر ونظرت إلى الجنوب فاذا الطريق قد فرقت فروقاً عظيما حتى لتوشك أن تنتهى عنـد خليج « أيلة » فأخافها أن تمتد الطريق وتفيح ، ثم نظرت كرّةً أخرى إلى الشمال فاذا الوادى يهبط إلى خيف لين رقيق ثم هو يزلق إلى الغور

وقد كان عسيراً على الأخوين وقد برّح بهما السير فى الأخاديد والأغوار والهوّات والأودية أن يستأنفا الرحلة فى الأرض البُراح ، ومع هذا كله ما كانت « سافو » تستطيع أن تردّه عن منازعه ، فلمـا جاز الأخوان بعض الطريق وأوشك وادى « العربة » أن يتقلّص ويغيب ترقرقت خيالة « سلع » فى عينىْ « سافو » فذكرت زوجها الفطريف ، وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لأخيهـا :

— إنه ليجمل بك أن تدأب فى سيرك حتى يطلع عليك « الأردنّ » أما أنا فلقد نذرت رجوعاً إلى « سلع » حيث ألحقُ بزوجى الذى لم يترك سلاحه بعد !

---

(١) أوديب فى كولون الفصل الأول المشهد الأول

وكانت لهجتها صريحة وصادقة ، فلم يستطع « كريستيا » وهو الذى يعرف حبها لزوجها أن يمضى لها أمراً ، فلحق بها إلى وادى « العربة » وكان لا ندحة لهما عن الرجوع معاً الى جبل « حور » ثم ينحدران الى الدير ويلحقان « بسلع » !

وبعد طواف عنيف فى الأرض العطشاء ، فرع الشقيقان فى جبل « حور » فنزلا بضلعه الشرقية وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطل على الطريق ، أن يريا إلى وادى « العربة » الجميل وإلى صحراء « التيه » فوقف « كريستيا » خاشعاً أمام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره أن يحلق فى عالم آخر . وكيف يستطيع إحساسه الثائر أن يحلق فى عالم آخر ، وهذه الأرض المقدسة من « سيناء » ترعش فى نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكاءه وتذكره بماضى هذه البطحاء التى استمعت إلى صوت الله وهو يتحدث إلى نبى !

خيل إلى « كريستيا » وقد وطئ كرة أخرى حضيض الجبل اللهم أن الدنيا طويت له واجتمعت عنده فأنى تلفت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موج دافق من رواء السماء وبهاء السماء ، وأنى استقر أخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يجده الشعر المهذب فى خيال رواته وقائليه ، بل لم يكن يستطيع وقد عرضت له « سيناء » وصحراء « التيه » وقيعان وادى « العربة » وجروفه أن ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العابقة بعطر النبوة والوحى

ولما أوشك أن يرق القنة التى عليها قبر « هارون » أرخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس ، ووقفت « سافو » حياله ، فما فاتها وقد لصقت به أن تسمع صليل جوفه ، وأن ترى إلى عينيه وقد غابتا فى عقيق « سيناء » !

فى تلك الأثناء حفا البرق فى الصحارى ، وامتدت شعله وخيوطه على حواشى جبل « سيناء » حتى ضوأت قلله وقننه ، وكشفت ربوده ومصاده وشعافه ، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه ، ثم أضاء البرق ولمع ، ثم أضاء ولمع ، وتلت ذلك أصوات تشبه الهزيم ، وترقرقت ألوان الشفق الحمراء فى كل ناحية حتى أصبح الأفق وردة كالدهان ، تخيل إلى الشاعر أن هذه الأطواد التى تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها ، وإنما هى تريده على أن يستشرق بهذا القبس الشاعل الذى تراءى لموسى النبى فى البادية الغلفاء ، فلصق بمكانه وقال « لسافو » : انه يكره الرجوع إلى « سلع » ، وإن من أحب المنى إلى نفسه أن يموت وعيناه تنظران إلى أضواء هذا القبس الذى ترمى به قلل « سيناء » الرفيعة إلى الصحارى والبوادى

وما زال البرق يضئ ويلمع على روابى « سيناء » ، وما زالت الأصوات الخفية تتغاير فى الأفق على مدى بعيد ، وما زالت ألوان الشفق الحمراء تتفجر هابطة صاعدة ، وريح النعناع تفغم الخياشيم حتى أحس « كريستيا » قداسة هذه الأرض ، فخلع نعليه وركع بجوار قبر « هارون » النبى مصلياً وداعياً ، منتحباً وباكياً !

لقد قال لها إن الجبل يناديني يا « سافو » ، وكل جارحة من جوارحى تقول لى لا يجمل بك أيها الشاعر أن تغمض عينيك على السحب الصادرة فى « سلع » ! ثم رفع صوته واثنى قائلاً : إن الله قريب منى ، وإنى لأراه فى هذا النور الذى يطفو على « سيناء » ، وفى هذا الفتون الذى يراق على بادية « التيه » ، بل إنى لأسمع صوته فى قسطلة الماء عند سفوح جبل « حور » . لم يعد فى هذه الحياة التى أخذتنى خطوبها وكوارثها ما أخافه ، وما أحرص عليه ، فالمجد الذى جنبنى طيفه فى ميدان « سلع » حيث يقتتل الناس إما زلفى « لقيصر » ، وإما زلفى « لفروة ابن عمرو » ، قد تمثل لى عند هذه القنن الرفيعة بألوانه وأنواره وطيوبه ونغماته ، وروحه الساكن الوادع ، وشبحه المضىء ، وجرسه العذب ؛ إنه ليخلع على جسمى الذى قرسه برد العشية دفء نفسه لأموت محترقاً فى سناه ، فذلك أمثل من موت يزحمنى ظله الصادر عند رواميس « سلع » ! ولأن تحتوينى هذه الأرض المقدسة أفضل من أن تحتوينى هذه الأرض التى لا تعرف القداسة !

وعبثاً كانت تصده عن ميوله ومطامعه ، فلقد أحب أن يموت على جبل « حور » كما مات موسى النبى ، وكما مات هارون النبى ، ثم هو إلى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر أن يموت فى الأرض التى لا تتصدع فيها السحب والبروق ، ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وإنهما ليتحاوران ويتساجلان في غير جدوى ولا طائل ، إذ حملت أعراف الليلة الساجية ترجيع الأبواق ووادي « سلع » فرجفا رجفاً . وقالت « سافو » : إنها أبواق « فروة » يا « كريستيا » ، وإنه المنتصر على « هراقليوس » . ناشدتك الله أن تمضي معي أو تبقى وحدك على هذه القنن

ورأى المسكين وقد أذكره صوت البوق حاضره أن يلحق بها ، ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة أخرى جبال «سيناء» وصحراء «التيه» فألاعته الأضواء الغامرة وأحرقت أحلامه ، فوقر في ذهنه أن يبقى في جبل « حور » طوال ليله فلا يفارقه ولا يخفره ولا يمل الطواف بشعافه ورعانه ، ولا يسأم الهبوط إلى حضيضه وسفحه ، نعم إنه مريض وإنه مُدْنَف وإنه ذلك المنفي الذي يقبس أغانيه من نفس عامرة بالألم زاخرة بالشجن ، ولكنه على مرضه ودنفه كان يلذ أعراف هذه الأماكن المقدسة ويرى فيها العافية التي يشتاقها ويحب أن يغني أغانيه في هذه الأصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابي « سيناء » كما سمعت صوت النبي الملهم ؛ وكان يشعر بقرب النهاية فنازعه شعوره الى المكوث في هذه الأرض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الأبدي في شعفة تطل على « الأردن » وعلى « حرمون » وعلى « بيت القدس » !

لقد باح لها بخواطره ، وقال لها إن في « سلع » مكاناً للبطولة الرائعة ، وليست تعرف فيه ذلك البطل القارع فمن حقه أن يجد مكانه على الرُّبى الشم حيث تترقرق أضواء السماء ، وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء ! فلما سمعت قوله لم تأنف أن تطرحه في الجبل فتولت عنه وتدفقت في سيرها تحت ضياء الكواكب ، وما زالت تمعن في الهبوط حتى استقبلت السفح وواراتها عن عينيْ « كريستيا » فجاجٌ وشعاب

وقلب عينيه في هذه الأرجاء الفيحاء فاذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه أشباح وأرواح ، وتجرى في سمائه كواكب متقاربة متباعدة ، وتنوح على أطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل ، وتخرج من جروفه وغيرانه أصوات كأنها عزيف الجن ، يضاف الى هذه المشاهد الراعبة قبسٌ يَخْطَفُ على سيناء في أقصى الأفق !

لقد روعته العزلة فتمايد وتمايل ، وخيل إليه أن بهذه النجوم الدانية من القلل والقنن عيوناً تنظر إليه ، ففغر فمه وبرق بصره ، ثم تساقطت الشهب في الأبعاد النائية كأنها الحريق الشاعل . فغشيته ذهلة ألمة ، وخيل اليه أن السماء قد ألقت اليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادي : « سافو » ! لك الله يا أخيّة أين أنتِ ؟

وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب في أخدود ضيق ، فاذا حسر الأخدود عنه أمسى في غار مظلم ، فاذا أوغل في ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه من صدوع في الصخر النابي فتندّى وَقَرْسَهُ البرد ، ثم يخرج من الغار فاذا هو بعد طوفة جاهدة عند سفح الجبل وإذا « سافو » لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع أن تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس الى اللحاق بها

ورأت « سافو » اليه تحت ضياء العشية فنادته بصوتها الرقيق الناعم : إني أخاف عليك برد الجبال فهلم فاتبعني الى « سلع » فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذي يضرم شعورك

وكان الانحدار الى « البتراء » سائغاً ولذيذاً فأحوتهما معاً طريق قديمة نقرت في الجلامد فأوغلا فيها ، وأظلتهما حجارتها الناعمة الملساء ، وتراءت لها في اليمين وفي الشمال أسوار حمراء بلون العقيق ، ولكنها أسوار عظيمة لم تتحيفها غائلة ولم تتخللها قرون وشعف ، فجازا الطريق الى الوادي وطلعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة ، ثم إذا هما يخرجان الى طريق تدفع الى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلخا في اجتيازها ساعتين ثم طلعت عليهما قبور « سلع » الأولى

ولم تكن سلع قد أطلت عليهما بعد ، فلقد وارتها حوائط من الحجر الصلد فارتدّا الى ناحية الشمال وفزعا الى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها أنوار السماء ، ورأيا الى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت أشداقها وحسرت عن ثقوبها فأخذتهما أشمة خفيفة تزلق إليهما من الجبال ، وسحرهما إطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فأحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً في هذه المدافن المعلّقة بين السماء والغبراء ، وسرّهما أن يتعرفا الديار والرسوم والأطلال ، ولذهما أن خيالة « سلع »

عادت تطوف بصدريهما الراعشين

فى أعماق هذا الجرف الذى تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة « سلع » عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثرّ !

جلس « كريستيا » على عمود رخامى كان جاثماً على الأرض ، فجلست « سافو » حياله وطفقا معاً ينظران فى ذهلة إلى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت ويغشاهما سكون ، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفعه على الأصنام المتداعية والعمد المنهارة فى ظل ظليل من أشجار الغار الواشجة

لم يجْرُؤْ « كريستيا » على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرق ، وأنسته ذلك الألم الذى تحيفه خلال طوافه بقنن جبل « حور » ونزوله إلى حدور وادى « العربة » بل لقد ألهته قسطلة الماء فى الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال « قيصر » تحت لواء « فروة بن عمرو » فما عادت صورهم تمرّ بصدره ، وكذلك كان شأن « سافو » فلقد غرقت مثل غرقه وسبحت مثل سبحه ، وأنستها هذه الظلال الندية الرخيّة تلك الثورة التى عصفت بنفسها الرقيقة فى ذلك الوادى الذى تتلاق عند قيعانه وكثبانه طرق « أيلة » والبحر الراعب ، فأية فتنة هذه التى هدهدت التياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء الذى تحبه وتأنس إليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضىَ « سلع » ففى هذه الدمن التى يغنّيها الماء الدافق الهادر غناءَه الشجىّ من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبقى حزنها إلى الأبد ، إذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء إلى حديث حياةٍ منقرضة وإذ هى محمولة على الشرود فى جلال الموت وفى روعة السماء

معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمى العربى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له)

— ٦ —

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق .. لا والله .. فما أبالى السمراء ولا اعجاب لى بها . وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تتاق الحياة هاشة باشة ، وأن تضحك للدنيا ، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة ، وأنا مفطور على الجد ، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام ، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى ، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفيه بما يدخل فى طوق من الوسائل ، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى . ولا تناقض هناك فيما أعلم ، وإنى لكما كنت طول عمرى ، وانما اختلفت المظاهر ، وأولاى معقودة بأخراى ، ولقد كنت فى صباى يائساً من الخير والسعادة فى هذه الحياة ، وأنا الآن أكفر بهما ، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسى وأقطع قلبى حسرة ، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة — على الأقل — بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون اليه ؛ وكنت أقول لنفسى جادا إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح ، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لعاقل غناء . . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطلب شفاء منه . ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إجماءً ، وأن الزهد ليس منجى ، وأن النفس تخسر به طيبها ورضاها ، وأن الذى لا يمد يده ليجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة ، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبغى ، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه ، فاذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع . فالطلب أولى ، والسعى أوجب ، لأن الطلب والسعى

من مقتضيات الحياة ، والحياة هي الحركة لا السكون ولا الجمود ، والزهد قهر للنفس ، والطلب فيه كذلك قهر للنفس ، وقهر النفس مع افادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان ، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هي ، لا على هوانا نحن ، فسيان أن تضحك لها وأن تعبس ، وللضحك إذن خير وأحزم وأولى بالعاقل

وعلى ذكر الضحك أقول إني أعجب لذات الثوب الأرجواني لماذا لا أراها تضحك أبدا ؟ ؟ إن من تعاريف الانسان أنه حيوان يضحك — أي يستطيع الضحك — ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة ، فعظم وقع ذلك في نفسي لندرته ولأنه كان فلتة مفردة ، فوجهها كالقمر — سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجري فيه — أعني أن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد ، وقاتل الله البعد ! وما يدريني ؟ ؟ فلعلها تبتسم ولكني لبعدها لا أراها رؤيتها ، ولست أذكر أني رأيت وميض عينيها ، أو أن عذوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبي ، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتني بالأمل أو الحزن .. ولكني على هذا سمعت صوتها .. نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد .. وكانت الليلة مظلمة والحر شديدا ، وكنت قاعدا في الشرفة والشجر على جانبي الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود ، فرأيتها تميل على جانب الشرفة ؛ ونظرت فاذا جارتها في شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة ، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض في أول الأمر ، ولم أكن أرجو أن أسمعهما ، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع في الليل الساكن وإذا بصوت فتاتي يحمله إليّ .. ماذا ؟ لا أدري ! فما كان هناك نسيم حتى أقول إنه حمله .. ولكنه صافح أذني على كل حال ، وقد شق علي أن أكون بحيث أسمع حديثهما ، ولكني لم أكن أتسمع ، وكان بيني وبينهما عشرون أو ثلاثون متراً — إذا حسبت الارتفاع — فاذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن أن هذا ليس ذنبي . ولولا الحر والركود الخانق لدخلت حجري وأويت إلى حيث لا يبلغني الصوت ، وكنت ساعة تهدّى الى الصوت أنظر الى الطريق الخالي الموحش في هذا الليل الساكن — ولو شئت لقلت الراكد ولكني شاكر — وكنت ربما رفعت عيني إلى النجوم الخفّاقة اللماعة ، وإذا بالصوت يقع في مسمعي فيكاد قلبي يقف . . . ولم يخالجني شك في أن هذا صوتها هي لا صوت الجارة . . ولا أدري من أين جاءني هذا اليقين ؟ ! وياله من صوت ! ! . رنان . . نافذ . . عميق الوقع . . فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر . . بل أنت كنت تغنين .. فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلوري ولا يخفت — في غير خمود — إلى مثل الهمس ، ويبريه الشجى أحياناً ، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية ، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التي تتمرد على الكتمان — أقول ما يكون الصوت هكذا إلا في الغناء . . ولا أدري لماذا ، ولكني لم أكد أسمع صوتك حتى خيل إلى أني أسمع « أورفيوس » يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح « ماذا تراني أصنع بغير يوريديس ؟ » . نعم . . كذلك بدا لي أن صوتك الذي هفا إلي على جناح النسيم الراكد . . صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة . يناديي . . . ويدعو . . . ثم لم أعد أدري ماذا جرى لي ولا ماذا أصاب الدنيا حولي ؟. وأحسست أن حياتي قد التف عليها صوتك كما تلف الحبال على أعضاد الأسير . . وكأنما تسرب وجودي في وجودك الغامض . . . وأطفئت الأنوار . . وازداد الليل حولي ظلاماً وصار السكون أعمق ، وأنا واقف لا أشعر إلا بخفق هذا الصوت اللائكي في نفسي ، وطلع النهار — نهار الناس — وأنا مائل على حافة الشرفة أنظر ولا أرى . . .

وقد صارت لي بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان — أنا الذي كنت لو تصدقيني ، أقضي أيامي ساكناً لا يكاد يسرني أو يسوءني شيء — أما الآن فاني أثب وأتنقل من الرغبة الجامحة إلى العقل الجاف المحل . وأحس دمي الحار ينبض في عروق — لا بل أراه — وقلبي يثب إلى حلقي فتتعلق أنفاسي وتكاد تحتبس ، ثم تغمرني موجة من المرارة الأليمة . . ويسخر مني عقلي ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو اليه يوريديس . وما دعا إلا قلبي ، وأين مني أورفيوس ؟ وأين منك تلك التي لم أعرفها الا منّ « جلوك »

وليت من يدرى أين أنت الساعة ؟ ؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك ، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجى اليها فى هالة من الحسن ، وأنفاسى معلقة وأذنى مرهفة لأسمع ، ولى على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد ، ولست أحس تعباً أو أشعر بقلق ، فانى كالمجنون أو المخمور ، وإنى لأرسل اليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو أنك تصغين . ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين .. كلا !! صوتك الملائكى لا يسمع مرة أخرى ، ولا ينطلق فى هذا الليل الساجى لينعشه ويحييه . وإن نوافذ بيتك لمفتوحة ، وإن الحجرات لمضاءة ، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة ، حتى ليفزعنى النور الذى يخرج منها

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكنى رأيت الوردة التى فى يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء ، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفى غذاء لروحى أن أرى معك وردة حمراء . . . كلا . . لست أريد ورداً وإنما أريد أن أسمع ذلك الصوت وأنعم به ، وأن أجتلى عينيك وأرى فى صقالها روحى ، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادليننى الاعراب عما ضاق الصدر بما أجن منه والقلب بما وجد ، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات قلبى . . . فاذا كنت تؤمنين بما أومن به — وما أومن من الناس إلا بكِ وحدكِ لا شريك لكِ — وإذا لم تكونى خيالاً ينسخه النور . . وإذا كنت أنثى . . وكان لك قلب ، فبالله الا ما أسمعتنى هذا الصوت مرة أخرى !! وهل أقل من ذلك ؟ ؟

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها — ولو كنت أعرفه لضننت به على الدنيا التى تجملينها — هذا ما قاله لى صوتك حين سمعته فى فحمة الليل الساكن . وقد رأيتك بعد ذلك فى الشرفة وفى يدك الوردة الحمراء ونظرت الى عينيك الواسعتين تحت حاجبيهما المستقيمين فأعادت على نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به الى — وإلا فلماذا يرتخى الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشى به النظرة من الخواطر ؟ ؟ ورأيت فمك الجميل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة . . . شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان . وفكرت فى هاتين العينين اللتين لا أجتلى فيهما البشر والرضى ، وفى هذا الفم الحلو الذى لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة — ولو ساخرة — فكرت فى ذلك لحظة وان كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً ...

ومن أعاجيبك أنى أراك أحياناً مسرورة ويبدو لى أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام ، ولا ضحك ، ولا شىء من مظاهر السرور المألوفة . . . فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلى لا يراك إلا من النافذة ، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضاً ، وبذوقك السليم فى الثياب والزينة .. ودرست الذين حولك من أهلك ... وأحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد . . وتلك أحسبها أمك وان كانت تبدو أصغر من أن تكون أماً . ويعجبنى منك ومنها أنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها . والآخرون .. ولكن مالى وهؤلاء جميعاً ؟ ؟

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن أسميها صديقتك فانها أشبه بذاك — وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفى يدك وردة صغيرة تشمينها .. وانى لمجنون .. وإن لك أن تقولى إنى طفل يرجو ويؤمن ، أو رجل يحلم ، ولكنى أعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها ، فما كان فى الطريق ولا فى النافذة غيرى . . نظرتِ الى ناحيتى ثم رفعت الوردة إلى أنفك الجميل وبعثت الى بهذه الوسيلة رسالة . . رسالة من مجهولة الى مجهول .. وخيل الى — وقد أكون واهماً — أنى لمحت امتقاعاً فى لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضاً على جمالها . .

ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عينى . . وبقيت أنا مسمراً فى مكانى لا أبرحه انتظاراً لعودتك . . مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين .. واذا بك فى الشرفة !! فان كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عينى التى لا ترتفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة ، فلا شك أنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذى ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب . . لا بأس . . واذا كنت لم أرك فانك فى قلبى . . قلبى الذى صار محراباً لحسنك .. وإنى لأحس أنى أصبحت شيئاً مقدساً بحلولك فيه . . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

نشرتُ فى الرسالة (العدد ١٥٧ فى ٦ يوليو سنة ١٩٣٦) كتاب أستاذنا الكبير العلامة شيخ الشريعة، امام مجتهدى الشيعة، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، فى نقد ما ذهبت اليه فى كتابى (نظام الطلاق فى الاسلام) من اشتراط الأشهاد فى الطلاق وفى الرجعة، خلافاً لما ذهب اليه أئمة الشيعة من اشتراطه فى الطلاق دون الرجعة، وقد انتصر الأستاذ — حفظه الله — لمذهبهم بأبدع بيان، مما لم نجد له نظيراً فيما بين أيدينا من كتب العلماء من الشيعة الأمامية

ووعدت أن أناقش الأستاذ فيما ارتآى واختار، وأن أبين وجهة نظرى، ملتزماً ما رسمته لنفسى من شرعة الانصاف فى البحث والنظر «فأكشف عن حجة خصمى وعن حجتى، لى وللناظرين: فامّا انتصر قول خصمى ورجعتُ عن قولى، وإما انتصرت لقولى وزدته بياناً وتأييداً، لا أبالى أى ذينك كان»

ووفاءً بما وعدتُ أنشر هنا ما قلته فى الكتاب (ص ١١٨ — ١٢١):

«قال الله تعالى فى أول سورة الطلاق: (يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، وأشهدوا ذوَىْ عدل منكم، وأقيموا الشهادة لله)»

«والظاهر من سياق الآيتين أن قوله (وأشهدوا) راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً، والأمر للوجوب، لأنه مدلوله الحقيق، ولا ينصرف الى غير الوجوب — كالندب — إلا بقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب. بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب: لأن الطلاق عمل استثنائى يقوم به الرجل — وهو أحد طرفى العقد — وحده، سواء أوافقته المرأة أم لا، كما أوضحنا ذلك مراراً، وتترتب عليه حقوق للرجل قِبَل المرأة، وحقوق للمرأة قبل الرجل، وكذلك الرجعة، ويخشى فيهما الانكار من أحدهما، فاشهاد الشهود يرفع احتمال الجحد، ويثبت لكل منهما حقه قِبَل الآخر. فمن أشهد على طلاقه فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به، ومن أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدى حدًّ الله الذى حده له، فوقع عمله باطلاً لا يترتب عليه أى أثر من آثاره»

«وهذا الذى اخترنا هو قول ابن عباس. فقد روَى عنه الطبرى فى التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) قال: ان أراد مراجعتها قبل أن تنقضى عدتها أشهد رجلين كما قال الله: (وأشهدوا ذوى عدل منكم). عند الطلاق وعند المراجعة. وهو قول عطاء أيضاً فقد روى عنه عبد الرزاق وعبدُ بن حُميد قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود. نقله السيوطى فى الدر المنثور (ج ٦ ص ٢٣٢) والجصاص فى أحكام القرآن بمعناه (ج ٣ ص ٤٥٦). وكذلك هو قول السُّدِّىّ. فقد روى عنه الطبرى قال: فى قوله: (وأشهدوا ذوى عدل منكم): على الطلاق والرجعة»

«وذهب الشيعة إلى وجوب الاشهاد فى الطلاق وأنه ركن من أركانه، كما فى كتاب (شرائع الاسلام ص ٢٠٨ — ٢٠٩ طبعة سنة ١٣٠٢) ولم يوجبوه فى الرجعة، والتفريق بينهما غريب، ولا دليل عليه»

«وأما ابن حزم فان ظاهر قوله فى المحلى (ج ١٠ ص ٢٥١) يفهم منه أنه يرى اشتراط الاشهاد فى الطلاق وفى الرجعة، وإن لم يذكر هذا الشرط فى مسائل الطلاق، بل ذكره فى الكلام على الرجعة فقط. قال: فان راجع ولم يشهد فليس مراجعاً، لقول الله تعالى: (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم) فقرن[1] عز وجل بين المراجعة

(١) فى النسخة المطبوعة من المحلى (فرق) وهو خطأ مطبعى واضح من سياق الكلام، وقد صححناه فى الكتاب على غالب الظن (لم يفرق) إذ لم نتمكن حين الكتابة من مراجعة النسخ المخطوطة بدار الكتب، ثم رجعت إليها بعد، ففى نسخة المحلى (رقم ٤٥ فقه حنبلى) هذه الكلمة (ففرق) ولكنها غير واضحة النقط، وهى خطأ كالنسخة المطبوعة، وفى النسخة (رقم ١٥ فقه حنبلى) (فقرن) وهى واضحة الحروف بينة النقط، وهى الصواب، والحمد لله. ونرجو القراء أن يصححوها فى المحلى وفى كتابنا

والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض ، وكان من طلق ولم يشهد ذوى عدل ، أو راجع ولم يشهد ذوى عدل : متعدياً لحدود الله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »

« واشتراط الاشهاد فى الرجعة هو أحد قولى الشافعى . قال الشيرازى فى المهذب (ج ٢ ص ١١١) : لأنه استباحة بضع مقصود ، فلم يصح من غير إشهاد ، كالنكاح ، وهو أيضاً أحد قولى الامام أحمد . أنظر المقنع (ج ٢ ص ٢٥٩) والمغنى (ج ٨ ص ٤٨٢) والشرح الكبير (ج ٨ ص ٤٧٢ — ٤٧٣) »

« والقول باشتراط الاشهاد فى صحة الرجعة يلزم منه أنها لا تصح إلا باللفظ ، ولا تصح بالفعل ، كما هو ظاهر . وهو مذهب الشافعى »

هذا ما قلته فى المسئلة ، وقد رد عليه الأستاذ شيخ الشريعة من جهتين : من جهة لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة ، ومن جهة الحكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية . فقال فى الوجه الأول : « إن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه ، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق ، وابتدأ الكلام فى صدرها بقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزومَ وقوع الطلاق فى صدر العدة ، أى لا يكون فى طهر المواقعة ولا فى الحيض ، ولزومَ إحصاء العدة وعدمَ إخراجهن من البيوت ، ثم استطرد الى ذكر الرجعة فى خلال بيان أحكام الطلاق ، حيث قال عز شأنه : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف) أى اذا أشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة ، ثم عاد الى تتمة أحكام الطلاق فقال : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى فى الطلاق الذى سيق الكلام كله لبيان أحكامه ، ويستهجن عوده الى الرجعة التى لم تذكر الا تبعاً واستطراداً »

وأما أن السورة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه حتى إنها سميت سورة الطلاق : فنعم . ولكن هل معنى هذا أنها مسوقة لأحكام إنشاء الطلاق وإيقاعه : من اشتراط حصوله فى قُبُل العدة ، ومن وجوب الاشهاد عليه ، لا غير ؟! ما أظن أحداً يرضى أن يدعى ذلك ! ولو سميت السورة سورة الطلاق !! فان فى السورة اثنتى عشرة آية ، فيها نحو من خمسين ومائتى كلمة ، لم يذكر فيها من الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق وإيقاعه إلا إحدى عشرة كلمة فى الآيتين الاولين . ثم سيق نصف السورة تقريباً لبيان الأحكام المتعلقة بالطلاق عامة ، من إنشاء وإيقاع ، ومن إمساك بمعروف أو مفارقة بمعروف ، ومن عدة وانفاق وإسكان وإخراج وأجرة إرضاع ، ومن بيان لحدود الله فى الطلاق ووعيد شديد لمن تعداها ، ومن ترغيب فى تقوى الله والتوكل عليه ، كل أولئك فى الآيات السبع الأولى من السورة الكريمة ثم سيق سائرها لأشياء أخرى ليست لها علاقة بالطلاق

فهل كل هذا ذكر تبعاً لسبع كلمات فى الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق فى الآية الأولى ، ولأربع كلمات فى الآية الثانية ؟! كلا ! إنها سورة الطلاق ، ذكر فيها كثير من أحكامه عامة ، وسيق نحو نصفها لارشاد الرجال الى ما يجب عليهم عند الطلاق وبعده ، وكل ذلك أصل مقصود ، لم يذكر شىء منه تبعاً ولا استطراداً

ولو قرأ القارئ الآيتين الأولين بأناة وروية ، وتأمل فيهما على ما تقتضيه الفطرة العربية المستقيمة والذوق السليم ، لتبين له أن الأمر بالاشهاد راجع الى الأشياء الثلاثة المذكورة فى الآيتين ، وهى الطلاق : أى انشاؤه ، والامساك بالمعروف : أى الرجعة ، والمفارقة بالمعروف : أى انفاذ الطلاق بتسريحها باحسان عقيب انقضاء عدتها ، وأنه لو كان المراد الأمر بالاشهاد عند انشاء الطلاق فقط لكان موضع ذكره فى صدر الآية الأولى عند قوله : (فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) ، أما تأخيره بعد ذكر الامساك أو المفارقة فانه صريح فى عودته الى جميع ما تقدم عليه

وهذا هو الذى فهمه أكثر العارفين باللغة والتمكنين منها ، ولم يستهجن أحد منهم عوده الى الرجعة ، ولا ادعى أنها ذكرت تبعاً واستطرادا ، فابن عباس وعطاء والسدى وغيرهم فهموا أن الأمر بالاشهاد راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً ، ولذلك قال ابن حزم « فقرن عز وجل بين المراجعة والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض »

وكذلك قال الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وهو من أعلم الناس باللغة وأفصحهم ، فقد قال فى كتاب الأم (ج ٥ ص ٢٢٦) : « ينبغى لمن راجع أن يشهد شاهدين عدلين على الرجعة ،

لما أمر الله به من الشهادة ، لئلا يموت قبل أن يقر بذلك ؛ أو يموت قبل تعلم الرجعة بعد انقضاء عدتها ، فلا يتوارثان ان لم تعلم الرجعة فى المدة ، ولئلا يتجاحدا أو يصيبها فتنزل منه اصابة غير زوجة »

وقال محمد بن جرير الطبرى فى التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) : « وقوله : وأشهدوا ذوى عدل منكم . وأشهدوا على الامساك إن أمسكتموهن ، وذلك هو الرجعة »

وقال العلامة جار الله الزمخشرى فى الكشاف (ج ٢ ص ٤٠٣) : « وأشهدوا يعنى عند الرجعة والفرقة جميعاً ، وهذا الاشهاد مندوب اليه عند أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا اذا تبايعتم . وعند الشافعى هو واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة . وقيل فائدة الاشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يتهم فى امساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث »

وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط (ج ٨ ص ٢٨٢) : « وأشهدوا : الظاهر وجوب الاشهاد على ما يقع من الامساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهى الطلاق . وهذا الاشهاد مندوب اليه عند أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا إذا تبايعتم . وعند الشافعية واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة . وقيل : وأشهدوا يريد به على الرجعة فقط ؛ والاشهاد شرط فى صحتها ، فلها منعه من نفسها حتى يشهد . وقال ابن عباس : الاشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع من النوازل أشكالاً كثيرة »

وبنحوه قال سائر المفسرين ، حتى لقد قال العلامة أمين الدين أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى المفسر من كبار أئمة الشيعة الامامية ، المتوفى سنة ٥٤٨ فى تفسيره مجمع البيان (ج ٢ ص ٤٣٠ طبع ايران) : « وأشهدوا ذوى عدل منكم . قال المفسرون : أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدى عدل حتى لا تجحد المرأةُ المراجعةَ بعد انقضاء العدة ، ولا الرجلُ الطلاقَ . وقيل معناه : وأشهدوا على الطلاق صيانةً لدينكم ، وهو المروى عن أئمتنا ، وهذا أليق بالظاهر ، لأنا ان حملناه على الطلاق كان أمراً يقتضى الوجوب ، وهو من شرائط صحة الطلاق ، ومن قال ان ذلك راجع الى المراجعة حمله على الندب »

فهذا الامام الشيعى لا يرى مانعاً من جهة اللغة والسياق أن يرجع الأمر بالاشهاد الى الرجعة والى الطلاق معاً ، ويتأول ذلك . أو يدعى أن الظاهر رجوعه الى الطلاق فقط ، انتصاراً لمذهب الأئمة من أهل البيت فى اشتراطه الطلاق دون الرجعة

ومع ذلك فان مذهب الامامية أن الاشهاد على الرجعة مندوب اليه مستحب ، نص على ذلك فى كتبهم فى مواضع مختلفة

وقد ورد فى رواياتهم عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى بيان طلاق العدة أنه : « اذا أراد الرجل أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضها ، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ، ويشهد شاهدين عدلين ، ويراجعها من يومه ذلك إن أحب ، أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ، ويشهد على رجعتها الخ » نقله الطبرسى فى التفسير ، وشيخ الطائفة محمد ابن الحسن الطوسى فى التهذيب ، والامام السعيد أبو جعفر محمد ابن على بن بابويه القمى فى كتاب (من لا يحضره الفقيه) وغيرهم

فهذا يدل على أنهم يرون أن الأمر بالاشهاد فى الآية راجع الى الرجعة كما هو راجع الى الطلاق . وان كانوا لا يشترطونه فى صحة المراجعة ، فذاك لشىء آخر وهو اتباع الأئمة من أهل البيت . ولولا أن الأمر راجع اليهم لما كان لديهم دليل على استحباب الاشهاد فى الرجعة ، ولما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : « ويشهد على رجعتها » فانه لم يرد طلبُ الاشهاد فيها فى شىء من القرآن إلا فى هذه الآية ، ولم يرد أيضاً فى شىء من الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد ورد فى أقوال الصحابة والتابعين ، كما نقلنا عن ابن عباس وغيره

وكما روى أبو داود (ج ٢ ص ٢٥٧) ، وابن ماجه (ج ١ ص ٣١٩) عن مطرف بن عبد الله : « أن عمران بن حصين سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ؟ فقال : طلَّقْتَ لغير سنة ، وراجعتَ لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد » ، وروى البيهقى فى السنن الكبرى (ج ٧ ص ٣٧٣) نحوه من طريق ابن سيرين عن عمران بن حصين ، واسناده عند أبى داود اسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام (ص ٢٢٨)

وروى البيهقى باسناد صحيح عن نافع قال : « طلق ابن عمر امرأته صفية بنت أبى عبيد تطليقة أو تطليقتين ، فكان لا يدخل عليها الا بأذن ، فلما راجعها أشهد على رجعتها ودخل عليها »

فعبد الله بن عمر فهم من الآية أن الأمر بالاشهاد راجع الى الرجعة ولذلك أشهد على رجعة مطلقته ، وعمران بن حصين

فهم ذلك أيضاً ، وأنكر على من طلق ولم يشهد وراجع ولم يشهد ، واعتبره مخالفاً للسنة ، اذ خالف ما أمر به فى القرآن . وهما عربيان يفهمان لغتهما بالفطرة السليمة ، قبل فساد الألسنة ، ودخول العجمة على الناس

وأنا إذ أحتج بأقوال من نقلت قولهم من الصحابة والتابعين والمفسرين فانما أحتج بها من وجهة الدلالة العربية وفهم مناحى الكلام فى الآيات الكريمة ، لا من جهة الرأى الفقهى الاستنباطى ، فقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً ، فبعضهم يرى وجوب الاشهاد على الطلاق وحده ويجعله شرطاً فى صحته ، وبعضهم يرى وجوبه على الرجعة وحدها ويجعله شرطاً فى صحتها ، وبعضهم يراه مستحباً فقط فى الأمرين ، وبعضهم يراه واجباً فيهما ولا يراه شرطاً فى صحة واحد منهما ، كما يفهم من كلام عمران بن حصين

وأما الذى أراه وأذهب اليه فهو وجوب الاشهاد فى الأمرين جميعاً وأنه شرط فى صحة كل منهما ، لأنه ثبت من دلالة الآيتين فى أول سورة الطلاق أن الله سبحانه أمر الرجلين بالاشهاد عند الطلاق وعند المراجعة ؛ والأمر فى حقيقته دائماً للوجوب ، ولا يدل على الندب الا دلالة مجازية ؛ والمجاز لا يراد من الكلام الا بوجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ، ولا قرينة هنا أبداً تمنع ارادة المعنى الحقيقى ، وان ادعى الشوكانى فى نيل الأوطار ذلك إذ قال (ج ٧ ص ٢٣ — ٢٤) : « ومن الأدلة على عدم الوجوب أنه قد وقع الأجماع على عدم وجوب الاشهاد فى الطلاق ، كما حكاه الموزعى فى تيسير البيان » ، وما أكثر دعوى العلماء الأجماع ، خصوصاً فى مسائل الطلاق ! وهى دعوى عريضة ، يدعونها فى كثير من المواطن إذا ما غلبتهم الحجة وأعوزهم البرهان ، وليس لهم عليها أى دليل ! كما قلت فى (نظام الطلاق) وبينت هناك المعنى الصحيح للاجماع ، « لكثرة إرجاف المرجفين بدعوى الاجماع فى الطلاق ، ليُرعبوا العلماء المجتهدين الصادقين المخلصين ، ويصرفوهم عن البحث فيه ، أو يؤلبوا عليهم العامة والغوغاء . فتحاماه أكثرهم وأحجموا عنه ، إلا من ثبّت الله قلبه وأيده بروح من عنده » (ص ٩٦ — ١٠٣)

(البقية فى العدد القادم)

أحمد محمد شاكر
القاضى الشرعى

دانتى أليجيرى

والكوميدية الالهية
وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

نفينا فى كلمة سالفة أن يكون دانتى اليجيرى قد تأثر فى كوميديته برسالة الغفران لأبى العلاء ، ورجّحنا أن يكون قد احتذى ملحمة (الأنّيد) للشاعر الرومانى الخالد فرجيل ، وأن تكون ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على الأدبين المسيحى والاسلامى ، ثم إلمامه بالأدب الاغريقى القديم قد شقّق له فجاجَ الخيال فاستطاع أن يضفى على كوميديته ظلالاً عبقرية جذابة من أشتات هذه الثقافات . فمن الأدب المسيحى استمد إيمانه الذى تفيض به الكوميدية ، واقتبس من رؤيا يوحنا اللاهوتى أمواهاً لوّن بها فصوله ؛ ومن قراءاته الاسلامية — وأهمها القرآن — افترض أخيلةً للجحيم خصبة قوية ارتفع بها الى ذروة الأدب السامى الرفيع ... أما من الأدب الاغريقى القديم فسترى أن دانتى — إما بالذات وإما بالوساطة — قد قبس قبسة من أسطورة أرفيوس وقبسة أخرى من هرقل وقبسات غير هذه وغير تلك من الأساطير التى تتناول الدار الآخرة (هيدز)

على أن ملحمة الأنيد لفرجيل هى التى أوحت الى دانتى فكرة الكوميدية . وقد رجعنا الى الفصل الطويل الممتع الذى كتبه (بوكاشيو) عن مواطنه ، وقرأنا كذلك ما كتبه الأستاذ فلّبو فللانى فى مجموعته (Lives of Illustrious Florentines) وما كتبه الأستاذ العلامة ج . ا . سيموند عن دانتى ، والمقدمة التى كتبها إدمند . ج . جاردنر للكوميدية (ترجمة كارى سنة ١٩٠٨) ، ثم الفصل الطريف الذى عقده الأستاذ رتشارد جارنت عن دانتى فى كتابه (تاريخ الأدب الايطالى ص ٢٤ — ٥٢) فتأكد لنا أن دانتى كان معجباً الى غير حد بالشاعر الرومانى فرجيل وأنه كان يحفظ الكتاب السادس من الأنيد عن ظهر قلب ، وأن هذا الكتاب السادس (الذى سنلخصه للقراء) من الأنيد إن هو إلا صورة مصغرة لجحيم دانتى مع فارق الغاية واختلاف القصد بين كل من الشاعرين

أما أسطورة المعراج الملفقة[1] التى لفتتنا اليها الرسالة ، والتى خال بينها وبين الأساطير التى نحن بصددها علاقة أستاذنا الجليل صاحب (ذكرى أبى العلاء) فلنا فيها رأى سنذكره عند الكلام عن فردوس دانتى وعن جحيمه أيضاً

ولتشعب البحث نرى أن نضع بين يدى القارئ خلاصات موجزة لكل من رسالة الغفران (مع صور للجنة والجحيم من القرآن الكريم) ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى ، وبعض مجازفات أوليسيز من (الأوديسه) ، وأسطورة أرفيوس ، ورحلة هرقل الى هيدز ، والجزء السادس من أنيد ڤرجيل ، ونتبع ذلك بخلاصة لكوميدية دانتى بأجزائها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، ثم نقفى بمقارنة تاريخية لن تضير شاعرنا العربى العظيم فى شىء ، لأنه ليس ضيرا ألا يكون دانتى قد احتذى مثال أبى العلاء أو قلد أسطورة المعراج

١ — رسالة الغفران

أرسل على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح إلى أبى العلاء رسالة ضافية يستفتيه فيها عن بعض مشكلات النحو والصرف ، ثم يبدى « غيظه على الزنادقة والملحدين ، الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون إدخال الشُّبَه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبوة النبيين ، ويتطرفون ويتذرّون — إعجاباً بذلك المذهب : (تيه مُغَنّ وظرف زنديق) . . . » ويلم بأخبار بعض الزنادقة كبشار والقصار الأعور والصناديقى والوليد بن يزيد وأبى عيسى بن الرشيد والجنابى والحلاج وابن أبى العُذافر . . . الخ . . . ويشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم إشارة لها معناها ، ثم يذكر شيئاً عن حجه وأسفاره وتحصيله لعلوم اللغة . . . ويتبسّط فى الحديث كأنما رفعت الكلفة بينه وبين أبى العلاء فيضع بين أيدينا مفتاح رسالة الغفران . . .

وقد قرأنا كل ما كتبه أدباؤنا عن رسالة أبى العلاء فراعنا أن واحداً منهم لم يعرض لرسالة ابن القارح بكلمة ، وراعنا أن واحداً منهم لم يتوفر على دراستها ليدرك العلاقة بين الرسالتين ، وكان يؤلمنا أن بعض أدبائنا لم يكن يدرى من أمر رسالة الغفران شيئاً إلا أنها تهكم وسخرية بابن القارح ؛ مع أنها رجع الصدى لزندقته وإلحاده

قال ابن القارح فى ختام رسالته : « كنت بتنّيس وبين يدى إنسان يقرأ ، ويحزن ، : (يُوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً ؛ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ؛ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً ؛ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نَضرَةً وسروراً ؛ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ؛ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانيةً عليهم ظلالها ، وذُللت قطوفها تذليلاً ؛ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ؛ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ؛ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ؛ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً : عاليَهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ؛ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ؛ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ؛ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ؛ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... ...) قال ابن القارح : وكان القارئ يتألم ويبكى ، فخطر لى خاطر فقلت : أنا بضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ! ! ، أنا لا أنذر ، ولا أفى ، ولا أخاف شقاء ولا عناء ! ! »

أفرأيت وسمعت . ؟ ! ابن القارح ضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ، لا ينذر ولا يفى ولا يخاف شقاء ولا عناء ! ! ومع ذلك فهو من علماء المسلمين الذين يفهمون معانى الآيات ، ويعرفون من هم أولئك الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ... ابن القارح الذى ذكر فى رسالته أنه يغتاظ على الزنادقة والملحدين والطاعنين فى الأنبياء بغير الحق لا يهمه أن يكون بضد الأبرار المذكورين فى سورة الدهر ، ولا يهمه ألا ينذر ولا يفى فلا يخاف عناء ولا شقاء ؟ !

هنا مفتاح رسالة الغفران ! !

ومن أجل ذلك كان عجبنا شديدا كيف أن أحدا من أدبائنا لم يلتفت الى رسالة ابن القارح ليهتدى الى الروح التى أملت رسالة

(١) نقصد القصة التى وضعها نجم الدين الغيطى ولا نقصد حادث المعراج الذى نؤمن به ، وقد وقفنا إلى أشياء عن هذه القصة ستروق القراء ان شاء الله

الغفران .. لقد طرب أبو العلاء أيما طرب أن وجد أديباً مثله معجباً به يقدر أدبه وفلسفته وآراءه في الحياة والناس ويخاف مثله من مصارحة الناس بما يؤمن فيكتب بهذا الأسلوب المضمر الملغوز الذي يقول في أوله : إني أغتاظ على هؤلاء الزنادقة والملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج ومن اليهم ممن يجدفون في الله وفي كتبه ويشككون الناس في أنبيائه ؛ ثم يقول في آخره إنه خطر له خاطر حين سمع قارئ سورة الدهر وهو يقرأ ويحزن ويبكي أنه يضد هؤلاء الأبرار (صلوات الله عليهم ؟ ! !) لأنه لا ينذر ولا يقي ، ولا يخاف شقاء ولا عناء !

طرب أبو العلاء أيما طرب لأنه وجد رجلاً مثله لا يؤمن بهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض ، ولا بهذه الأنهار من لبن وعسل وخمر ، ولا بهذه العين السلسبيل ، ولا بهؤلاء الولدان المخلدين الذين يطوفون على المؤمنين بأكواب من فضة ، ولا بالحور العين ... ولا يؤمن بما جاء في أول سورة الدهر مما أعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير .. وإذن ، فليكتب أبو العلاء الى ابن القارح ، وليخضع في كتابته الى ابن القارح لما تسميه السيكلوجية « تداعي المعاني » فيدخل به الجنة ... ولكن قبل أن يدخل الجنة لا بد أن يمت ... وقبل أن يبعث لا بد أن يموت .. وسيلقاه عزرائيل ساعة الموت ، فلا بأس من أن يناقشه أبو العلاء مناقشة صرفية فكهة مضحكة ، فاذا دخل القبر وأغلق عليه وجاء الملكان منكر ونكير فأي بأس من أن يجادلهما كما جادل عزرائيل ، فاذا رفعا الأرزبة ليدقا بها عنقه فأي بأس أيضاً من أن يربكهما بمناقشة صرفية عن هذه الآلة المحطمة ليشغلهما قليلاً عن تعذيبهما إياه ... ثم أي بأس أيضاً من أن تستمر هذه المناقشة الصرفية في كل مكان من البعث ، الى أسوار الجنة ، الى الصراط ، الى داخل الجنة نفسها ، الى جهنم ... الخ أليس قد أراد أبو العلاء أن يشارك ابن القارح سخريته ؟ فلم لا يشاركه دعابته ؟ ولم لا يداعبه تلك المداعبة المضحكة بشرط ألا يفهم أنها دعابة إلا ابن القارح ، فاذا قرأها رجل غير ابن القارح وكان عارفاً باللغة وأسرار نحوها وصرفها راقه ذلك التحقيق الفقهي لتصريف تلك الكلمات التي لا يسمن تصريفها ولا يغني من جوع من مثل (عزرائيل وملك وإرزبة وجهنم ... الخ ...) فاذا كان القارئ مؤمناً وربما يسره الحديث عن الجنة وملاذها ويخيفه الحديث عن جهنم وآلامها شاقه حديث الرسالة عن متع الفردوس ، وهذا الأوز الذي ينتفض فيكون حورا عيناً باذن الله ، وسمك الحلاوة الذي يسبح في أنهار الخمر والعسل واللبن والأرى ... وأخافه ما يرى في السعير من صنوف المجرمين الكافرين الذين كذبوا بيوم الدين ... وما يكذب به الا كل معتد أثيم ...؟ !

وقد طرب أبو العلاء أيضاً ، وازدادت ثقته بصاحبه لأنه عرف فيه رجلاً يعطف مثله على الحيوان ..... لأنه « حدثه من يثق به وكان زاهداً (!) قال : كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق ، فرأينا شاوياً ، وقد أخرج حملاً من التنور ، وإلى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر إليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يا مولاي ! دعني آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزاً ، ومنزلي قريب ، تشرفني بأن تجعل راحتك اليوم عندي ، فقال : « ياهذا ، أظننت أني اشتهيتهما ؟ وإنما فكري في الحيوان كله !! لا يدخل النار إلا بعد الموت ... ونحن ندخلها أحياء ! »

إذن ، فليطمئن أبو العلاء إذا كتب إلى ابن القارح ، وليطف به من البرزخ إلى المحشر إلى الصراط ، ولتحمله وصيفة فاطمة الزهراء إلى داخل الجنة (زقفونه) ! وليجذبه ابراهيم إلى الجنة رغم أنف رضوان ... ولتكن هذه الحياة الأخرى مهزلة وملهاة مضحكة سواء أفي الجنه أو في الجحيم ... وليحرض ابليس زبانية جهنم على جذب ابن القارح ليكون معه في بطن سقر ..... وليتقارض هذان الساخران الملحدان الضحك على المؤمنين وإله المؤمنين وأنبياء المؤمنين وجنة المؤمنين ..... وليتقارضاه آمنين مطمئنين فليس أحد في عصرهما بقادر على أن يدرك أنهما يستهزئان بكل ذلك ..... بل كل الناس ستكبر أدب ابن القارح وأدب أبي العلاء .... لأن ابن القارح (يغتاظ على أولئك الزنادقة الملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج لأنهم يجدفون في الله وينكرون أنبياء الله ويكفرون بكتب الله ويشككون الناس في كل ذلك) ، ولأن أبا العلاء قد أعطاهم صورة من الجنة تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم وصورة من الجحيم تزيدهم منها خوفاً فوق خوفهم ... وليفرح النحاة بأبي العلاء لأنه حل لهم ألغازاً من الصرف والنحو لم يكونوا قادرين عليها ، وهي عند أبي العلاء

ضرب من الهذيان لا غناء فيه

على أن أشياء أخر فى رسالة ابن القارح تشعر القارئ برقاعة وفجور لا يدلان إلا على زندقة وفسق ، ونفس خبيثة لا تتوقر ، ولسان بذىء ينفث الفحش ، وفم يقىء الدنس ... اقرأ هذه النبذة التى دسها ابن القارح من غير ما مناسبة اقتضتها فى رسالته :

« دفع رجل الى صديق له جارية وأودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه اليه : يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب !! »

وهو قبل ذلك يشكو الى أبى العلاء انصرافه عن طلب العلم وانغماسه فى الأغراض البهيمية وأنه قبل أن يجىء الى مصر كان يذاكر خمسين ورقة كل يوم ، ولكن الأغراض البهيمية التى عرفها فى مصر وانغمس فيها ثمة صرفته عن جده ومثابرته فهو لا يذاكر إلا خمساً ومع ذاك تكل عيناه فى تحصيلها على قلتها . .

وحديث ابن القارح عن الزنادقة حديث الهازل غير الجاد . . حديث (المستملح) لما كان يصدر عنه هؤلاء الزنادقة من عتو وإلحاد والتماس الرفد والتوسل الى المنفعة بالتدين . . وقد اشتهر عن أبى العلاء نفسه أنه كان يتهم الأنبياء بمثل ما اتهم به ابن القارح الزنادقة من هذا الالتماس للرفد عن طريق الدين ، واللزوميات تفيض بشواهد كثيرة على ذلك

ونحن لا ندرى لم حشد ابن القارح هذا الحشد الكثير من الزنادقة فى رسالته ، وألم فيها بشر ما كان يصدر عنهم من تسفيه الأنبياء ، وسب الخلفاء ، والتبرم بالاسلام وبالمسلمين ؟ أليس كان يشير أبو العلاء الى كثير مثل هذا فى لزومياته ؟

اسمع الى هذا الرجل من يهود خيبر يعرض بموسى ويستهزئ بعمر حين أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب :

يصول أبو حفص علينا بدرّة ... رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط ... لتشبع ، إن الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتمو ... علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقنا كم الى اليمن فاعرفوا ... لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا ... وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

واسمع الى الذى يسب أبا بكر لشدة نالته منه فرحل الى بلاد الروم :

لحقت بأرض الروم غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركونى من صبوح مدامة ... فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكمو ... فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى ... فانى قد خليتــه لأبى بكر ! !

وهكذا يحشد ابن القارح فى رسالتــه كل ذلك الفحش من أقوال الزنادقة وهو يعرف أن أبا العلاء قد قال مثــل ذلك فى لزومياته ، فكأنه قصــد الى أن يغنى على عوده ويضرب وراء هواه ، ... ولا ينفعه بعد ذلك سبه لهؤلاء الزنادقة ، هذا السب الذى كاد يكون رشقاً بالورد وتحية بالريحان وتزويراً على القارئين

* * *

وبعد ، فموضوعنا دانتى وأبو العلاء ، وهــذا حديث طويل عن ابن القارح .. ولكنه حديث عن السبب فى كتابة رسالة الغفران سنحتاج اليــه حين نتكلم عن السبب فى كتابة الكوميدية الالــهية

ولنختم هذا المقــال بذيل عن رسالة الغفران ليكون بين يدى القارئ خلاصة خاطفة لها :

دخل المعرى بصديقه ابن القارح جنة الفردوس ، فركب نجيبا يتنقل عليه فى آفاقها ، ثم طفق يطوف على أهلها ممن غفرت لهم خطاياهم فى الدار العاجلة ببيت شعر أو كلمة طيبة ، وترك المعرى لخياله عنانه الطويل فتفنن ما شاء فى وصف حور الجنــة وأنهارها وألوان نعيمها ... ويلقى ابن القارح تمم بن أبى الشاعر فيسأله عن أبيات كان قد قالها ، ثم يتشقق الحديث فيقص ابن القارح على تمم قصة بعثه وهول المحشر ثم حديثه مع رضوان وزفر ، وورده على الحوض المورود ولقاءه فاطمة بنت النبى واستشفاعه بها وجذب ابراهيم بن النبى اياه فيكون داخل الجنة ...

ويعود ابن القارح الى محاورة أهل الفردوس ممن غفر لهم ويطوف بحدائق الحور ثم ينتقل الى جنة العفاريت فيحدثه أهلها بأعجب الأحاديث ... ويشتاق الى الاطلاع على أهل الجحيم ، فيتحدث الى الخنساء (والعجيب وضعها فى النار مع حسن اسلامها ووضع أشد الكفار عتوا فى الجنة ! !) ويتحدث الى ابليس والى طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية ... ثم يعود الى الفردوس فيتحدث الى آدم ... ويخلص الى جنة الرُّجَّاز ... ويختم الكوميدية بوصف بارع لنعيم الخلد ....

« يتبع »

د . خ

شعراء الموسم فى الميزان
نقد وتحليل
للأديب عباس حسان خضر
— ٢ —

صرعى الأغراض

تناول شعراء الموسم مختلف الأغراض ، فلم يكن منها فى صميم ما يحس به جمهور الشعب احساساً عميقاً شاملاً غير هذه القصيدة ، وقصيدة « وطنى » للأستاذ محمد الهمياوى ، فلقد كانت هذه الصيحة التى أعلنها الأستاذ أحمد الزين حبيسة فى نفوس الكثيرين ، حتى لقد كانت زفرات الصعداء تقترن بتنفس الاعجاب ، ولقد تناول الأستاذ جزئيات الموضوع فى استقصاء وبيان لا يتأتيان لكاتب مطلق القلم من قيدى الوزن والقافية . استمع اليه يفند دعاوى العدل والمساواة والحضارة ، فى حجج بالغة :

لا يدعى العدل قوم فى عدالتهم ... صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها
ولا المساواة ، والأفهام لو وزنت ... مع الغباوة فيهم لا تساويها
ولا الحضارة من تجزى نوابغهم ... وحشية تسكن البيداء والتيها

والأستاذ الزين يأتى المعانى من أبوابها ، ويتناول مفاتيحها تناولاً حسناً ، ثم يجلوها فى ألفاظ عذبة مونقة ؛ يؤلف بين الشقائق ، ويجمع بين الأشباه والنظائر ، فلا تجد كلمة فى غير موضعها ، وإن ما يضطر اليه الشعراء من التقديم والتأخير وغيرهما لا تجد له أثراً فى شعره ، وهذه قصيدة (صرعى الأغراض) التى نحن بصددها ، اقرأ مطلعها :

هات الدام ولا تسمع لشانيها ... إن الزمان يصافى من يصافيها

هل تستطيع أن تلفظ كلمة وتقف ؟ لا ، لا بد أن يجرى البيت كله على لسانك حتى لتشعر كأنه ليس مؤلفاً من كلمات ينفصل بعضها عن بعض

وفى الأبيات التالية تصوير يدل على المهارة الشعرية :

ملء المناصب منهومون قد جعلوا ... من دونها سد ذى القرنين يحميها
على مناعة ذاك السدّ تنفذه ... عصابة تتواصى فى حواشيها
من كل أخرق تنسل الحظوظ به ... الى المراتب يسمو فى مراقيها
خابى القوى عبقرى الجهل يثقله ... عبء الرياسة إذ يدعوه داعيها

فتراه قد استوعب فى هذه القوالب الشعرية أكثر المعانى التى تتركب منها هذه الموصوفات ، وهذه غاية التصوير الشعرى ؛ وفى « عبقرى الجهل » ظرف كثير ، وقد أخذت هذه الكلمة سبيل الكلمات السائرة .

والقصيدة زاخرة بالمعانى ، منها ما هو عام يجول فى نفس الشاعر وفى نفوس غيره ، بيد أنه تفرد فى ترجمة المعنى وصوغه فى صور طريفة ، ومنها معان مبتكرة مضى اليها خياله سابقاً ، فمن النوع الأول قوله :

أرخصتمو غالى الأخلاق فى بلد ... لم تغل قيمته إلا بغاليها
يا رب نفس أضاء الطهر صفحتها ... أفسدتموها فزلت فى مهاويها
وكم قلوب كساها الحسن نضرته ... دنستموها فعاد الحسن تشويها
أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا ... لفاضل الخلق سعياً فى نواحيها
مدارس تغرس الأخلاق فى نشأ ... ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها
لا تلح طالب رزق فى نقائصه ... إن الضرورات من أقوى دواعيها
ما أطهر الخلق المصرى لو طهرت ... تلك الرياسات من أهواء موحيها

ومن أبكار المعانى قوله فى الخمريات التى ابتدأ بها :

بكرا تدور على الندمان لابسة ... عقداً من الحبب الدرى زهيها
سرى شذاها فحيا أنفساً ضعفت ... من الهيام بها عن أن تحييها

فهذا « الزين » أول من يلبس الكأس عقداً ؛ والبيت الثانى اشتمل على معان لا يسلكها فى بيت واحد إلا شاعر فحل ، فالكأس ذات شذى يحيى الأنفس ، والأنفس تتأثر بالشذى حتى يستهلكها ، فما تعود قادرة على تحية الكأس الوافدة عليها يقدمها شذاها محيياً . وإليك هذين التشبيهين فى مواهب النوابغ :

إن المواهب سلم فى أعاديها ... جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم
كالشمس تقبس منها عين عابدها ... وترسل النور فى أجفان شانيها
والنفس ان ملئت بالود فاض على ... نفوس أعدائها بالود صافيها
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على
جدب البلاد خلوف من هواميها

بعد أن تقرأ التشبيه الأول وتقضى حقه من الاعجاب قف هنيهة عند التشبيه الثانى ، وانظر قوة معانيه وكثرة أوجه الشبه فيه ، فالنفس المشبعة بالود كالسحب المشبعة بالغيث ، والنفوس

مبارك قضى فترة من الزمن فى باريس يطلب العلم فى احدى جامعاتها ، لأن تصف هذه القصيدة غريباً فى باريس ، بل لا بد أن تنى القصيدة نفسها بهذا الغرض ، لا بد أن تصف غريباً وتصور نوازعه وحنينه الى وطنه ، ولا بد أن يكون هذا الوصف ملابساً لباريس مشتملاً على خصائصها . أما عن الشطر الأول فقد فعل وأحسن ، وان كان لم يُجد الاجادة التى تنبغى للدكتور زكى مبارك ؛ تألم من الغربة فقال :

يا جنة الخلد كيف يشقى　　فى ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم نشاوى　　ودمعه دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيداً　　فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين عسى　　أن يهجع الخفق والوجيب

وهذه الأبيات أحسن ما فى القصيدة

وحن الى وطنه فقال :

مغانى النيل كيف أقصت　　ربيب أزهارك الخطوب
وكيف ألقينه بأرض　　أصبح أحلامها كذوب

وصور نوازعه الى المجد الذى قد اغترب من أجله فقال :

يسدد السهم ليس يدرى　　أيخطئ السهم أم يصيب
يطارد المجد فى زمان　　اقباله غادر لعوب
الشهم من ناسه شريد　　والحر من أهله غريب

وهـــذه الأبيات — وان كانت عادية — فيها روح من يطارد المجد

وأما باريس ، فلها الله باريس ! كل ما أتى به عنها قوله فى المطلع : « يا جنة الخلد » وقوله بعد ما ذكر أنه ألقى بأرض اصبح احلامها كذوب:

أديم أجــوائها سواد　　فلا شروق ولا غروب
وحب غاداتهـا موات　　فلا سكون ولا هبوب

أكل ما يقال عن باريس أن الضباب يملأ أجواءها وأن حب غاداتها موات ؟ وهل تعد هذه الأشياء من خصائص باريس التى تميزها من غيرها ؟ أو لا يصح أن يطلق على القصيدة بدلاً من « غريب فى باريس » : غريب فى أى بلد من بلاد الله التى يصح أن تشبه بجنة الخلد ، ويكثر فيها الضباب ويكون حب غاداتها مواتا . . ؟

ألا ان الغريب فى باريس يقول قصيدة لم يقلها بعد الدكتور زكى مبارك

ثلاثة شعراء

هم الأساتذة : سيد ابراهيم ، عزيز بشاى ، كامل كيلانى . أنشد كل منهم قصيدة كنا نود لو أنشأ أو اختار من شعره غيرها تكون أدنى الى الغاية المرجوة من الموسم ، فالناس يبتغون من موسم محتفل له شعراً يشعرهم بجزالته وعلو معانيه وسمو أخيلته أن للموسم خطراً . . . أما الأول والثانى فكان قولهما تافهاً : معان عامة وأفكار عادية وأسلوب خال من القوالب والتعبيرات الشعرية مثل قول الأول يناجى ولده :

جذلان تفرح لو يز　　يد على نصيبك درهم

وقول الثانى يصف حال الأغنياء :

لا يملؤون بعليم عقولهم　　ويملؤون بطونا بالجنيهات

وما الى هذا مما لا نطيل بذكره لعدم فائدته . وانه لخير للأستاذ سيد ابراهيم أن يقتصر على خطه الجميل ويدع الشعر للشعراء

أما الثالث وهو الأستاذ كامل كيلانى فقد ألقى قصيدته « الباز والقبرة » وهى تحكى أن « بازاً » اصطاد « قبرة » فجاءه « لقلق » يأخذ عليه استبداده بالقبرة الضعيفة ، فقال له الباز : وأنت أيضاً تصطاد الضفدع الضعيف فهلا تركته كما تريد منى أن أدع القبرة . ثم علق الأستاذ على الحكاية بعد أن ساقها نظما بقوله :

كم خطيب على المكا　　رم قد حث معشره
ان رأى ناكباً عن الخيـ　　ـر لحاه وعيره
هفوات الورى يرا　　هـــا ذنوباً مكبره
ثم يلقى ذنوبه　　هفوات مصــغره
مثل هـــذا منافق　　جعل النصح متجره
نصحه كله خـــدا　　ع وغش وثرثره

وموضع قصيدة مثل هذه كتاب من كتب الأطفال ، لا موسم الشعر ؛ وأسلوبها سليم ، ونظمها طبيعى لا تكلف فيه أما نقدها من حيث الموضوع فمن اختصاص أهل العلم بتربية الأطفال ، فلا نقول فيما لا نعلم

عباس حسان خضر

٣ـ أثر الحرب الكبرى في بريطانيا

للأستاذ رمزي ميور
أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً

تتمة

ترجمة الأستاذ محمد بدران
ناظر مدرسة بمبافادن الابتدائية

وفي ارلندة أيضاً لاح أن الحرب قد أتاحت لها فرصة العمل على نيل ما كانت تطلبه منذ زمن بعيد من تقرير حقها في الحكم الذاتي. وكانت ارلندة هي الجزء الوحيد من أجزاء الامبراطورية الذي انتهز فرصة الحرب للثورة مع أن هذه البلاد كانت من الوجهة القانونية جزءاً من المملكة المتحدة ممثلا في البرلمان البريطاني أتم تمثيل. وقد فعلت ارلندة ذلك من قبل فثارت في كل حرب من الحروب الأوربية الثلاث التي اشتبكت فيها بريطانيا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. شبت الثورة فيها علنا سنة ١٩١٦، ثم أخمدت ولكن الحكومة شعرت أن من الخطر أن تطالب ارلندة بما كانت تطالب به انجلترا واسكتلندة وويلز من الرجال، ومع أن كثيرين من الارلنديين قد تطوعوا للحرب باختيارهم فقد بقي الشعب الارلندي بوجه عام في معزل عنها يدعو الله أن يخذل بريطانيا. ولما وضعت الحرب أوزارها شبت فيها من جديد نار الثورة التي كان يلوح وميضها خلال الرماد، ودارت فيها رحى حرب أهلية طاحنة انتهت باذعان بريطانيا وتسليمها للقوة بما لم ترض أن تسلم به للنزاع الدستوري فأعطت الارلنديين أكثر مما كانوا يرتضونه قبل ذلك الحين، ذلك أنها قبلت في سنة ١٩٢١ أن تتكون من أربعة أخماس ارلندة «دولة ارلندة الحرة» وهي دولة ذات استقلال داخلي تام تتمتع بنظام «الأملاك المستقلة» وبحق تقرير ضرائبها الجمركية وإنشاء جيشها وسن قوانينها وسك عملتها. وبذلك كان جزء الأمبراطورية الوحيد الذي ظل طلبه الحكم الذاتي يرفض، على الدوام جزءها الوحيد الذي نبذ كل فروض الطاعة والولاء أثناء الحرب، وكان أعظم النتائج السياسية للحرب وأعجبها أن انتهى بهذه الطريقة الحاسمة ذلك الكفاح الطويل الذي دام أربعة قرون، وتلك مقارنة ذات مغزى جليل تثبت أن الحرية لا الارغام هي التي تمسك أجزاء الأمبراطورية وتمنعها من التصدع والانهيار، وهي أول امبراطورية قامت في تاريخ العالم ينطبق عليها هذا المبدأ

وأول ما نشأ عن مطالبة أجزاء الأمبراطورية أن تشترك اشتراكا أوسع من ذي قبل في الاشراف على شؤونها أن دعيت طائفة من الساسة يمثلون الأملاك المستقلة والهند لينضموا إلى عضوية «المجلس الحربي» وكان لهؤلاء الأعضاء شأن كبير في تقرير السياسة التي اتبعت في آخر أدوار الحرب، وكان يظن أن هذا سيؤدي إلى وضع نظام للتعاون بين أجزاء الأمبراطورية أدق وأوفى بالغرض من النظام القديم. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل لسبب رآه المتتبعون لسير الحوادث نذيراً بانحلال الأمبراطورية في المستقبل، ذلك أنه لما عقد مؤتمر الصلح حضره مندوبون عن الأملاك المستقلة والهند، ولكنهم لم يحضروه من حيث هم أعضاء في وفد الأمبراطورية البريطانية فحسب، بل من حيث هم ممثلون لبلادهم أيضاً، ثم وقعوا المعاهدات كممثلين لدول مستقلة، ولما تكونت عصبة الأمم ظهرت الأملاك المستقلة والهند مرة أخرى وإن كان ظهورها في هذه المرة اختلف بعض الاختلاف عنه في المرة السابقة؛ فقد جعلت الأمبراطورية البريطانية من حيث هي وحدة قائمة بذاتها عضوا دائماً في مجلس العصبة، لكن كندا واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب افريقية والهند أصبحت كلها أعضاء في الجمعية العمومية للعصبة لها ما للدول المستقلة، وأصبحت كندا بالفعل عضوا من أعضاء المجلس غير الدائمين. ويرى البعض في هذه الظواهر دليلا على أن الأمبراطورية لا ينظر اليها في هذه الهيئة العالمية كما ينظر إلى وحدة سياسية، بل يعامل كل جزء من أجزائها معاملة دولة مستقلة ذات سيادة، ويعزز هذا أن تلك الأملاك أعطيت حقها كاملاً غير منقوص في بحث المسائل الدولية داخل العصبة أو عن طريقها، وأن الذي تبحثه ليس هو السياسة التي يجب أن تسير عليها الأمبراطورية المؤلفة من هذه الأملاك، بل إنها تشترك في البحث اشتراك الدول المستقلة

وهكذا أظهرت الحرب ولاء أعضاء الامبراطورية لها،

ولكنها أعقبها ضعف ظاهر فى الروابط التى تؤلف بين هؤلاء الأعضاء . فالأملاك المستقلة تطلب لنفسها حق تعيين سفراء من قبلها لدى الدول الأجنبية وأصبحت تتمتع بهذا الحق دون معارضة ، فقدعينت كل من كندا وإرلندة سفيراً لها فى واشنجتن ، وتطالب هذه الأملاك أيضاً بحق عقد المعاهدات مستقلة مع الدول الأجنبية . وقد عقدت جنوب إفريقية بالفعل معاهدة مع ألمانيا . واعترفت بريطانيا نفسها بهذا الانحلال التدريجى وبتفكك وحدة الامبراطورية السياسية فقد نص فى معاهدات لوكارنو صراحة على أن بريطانيا وحدها هى التى ترتبط بالتعهدات المدونة فى هذه المعاهدات وأن الأملاك المستقلة لا شأن لها بها . ووضع هذا النص بناء على طلب الأملاك المستقلة نفسها لأن السياسة التى قامت عليها هذه المعاهدات لم تكن وليدة اتفاق عام بين أجزاء الامبراطورية بل قررتها بريطانيا بمفردها إذ لا توجد أداة لوضع سياسة عامة تسير عليها الامبراطورية

وبهذه الطريقة أصبحت الامبراطورية البريطانية بعد الحرب هيئة سياسية مفككة العرى ؛ فليست هى دولة واحدة إلا فى خضوعها خضوعاً اسمياً لتاج واحد ، وليست هى دولة تعاهدية أو حلفاً قانونياً أو عصبة مجتمعة تعرف بها ، وذلك لأنه لا توجد معاهدة تحتم على أعضائها الاشتراك فى العمل . وإنما هى شركة مفككة مكونة من دول مستقلة تربطها بعضها ببعض عاطفة ومصالح مشتركة ولكل عضو فيها كامل الحرية فى أن يختط لنفسه الخطة التى تلائمه فى أى وقت شاء . واعترف بهذا اعترافاً كاملاً صريحاً فى المؤتمر الامبراطورى الذى عقد فى عام ١٩٢٦ والذى كانت قراراته من أهم الحوادث البارزة فى تاريخ الامبراطورية البريطانية . وقد يرى فيها المؤرخون فى المستقبل تسجيلاً نهائياً لترك كل محاولة ترمى إلى تدعيم وحدة الامبراطورية السياسية واعترافاً بانحلال هذه الامبراطورية انحلالاً ودياً نهائياً . والدليل على ذلك أن الأملاك المستقلة أعضاء فى عصبة الأمم تربطها بها روابط وثيقة وليست أعضاء مرتبطة فى جسم الامبراطورية

ومع هذا فان الأملاك المستقلة (مع جواز استثناء دولة إرلندة الحرة وجنوب أفريقية) تعد نفسها مرتبطة بالامبراطورية برباط أقوى مما بينها وبين العصبة . وإنما الفارق بين الهيئتين أن العصبة أوجدت أداة للاستشارة المشتركة ، والعمل المشترك أحكم من كل ما فكرت فيه الامبراطورية . فللعصبة جمعيتها العمومية التى تنعقد بانتظام فى كل عام والتى تدور فيها المناقشات العامة ، وللعصبة مجلسها الذى يجتمع ثلاث مرات فى السنة . أما الامبراطورية فليس لها إلا المؤتمر الامبراطورى الذى يجتمع مرة فى كل أربع سنوات والذى حددت له واجباته . وللعصبة سكرتيرية بديعة النظام ذات هيئات خاصة من الخبراء تبحث المشاكل الحربية والاقتصادية ومسائل العمال والصحة وما إلى ذلك ؛ أما الامبراطورية فليست لها هيئة مركزية إلا وزارة المستعمرات التى هى جزء من الأداة الحكومية لعضو واحد من أعضائها وهى لذلك لا تستطيع أن تعمل معتمدة على تأييد جميع الأعضاء

ويرى الجنرال اسمطس الذى ربما كان أعظم ساسة الامبراطورية كلها والذى كان منذ ثلاثين عاماً يقاومها بقوة السلاح ، ويرى هذا الجنرال أن الحكومة اللامركزية فى الامبراطورية وصلت إلى أبعد حد حتى أصبحت انحلالاً حقيقياً ، وهو قوى الاعتقاد بأن الرابطة السياسية التى نشرت لواء السلام على ربع بلاد العالم هى رابطة جليلة القدر يجب ألا يسمح لها بالانحلال تدريجاً ، ولذلك يدعو إلى العمل فوراً لتقوية هذه الرابطة بوسيلة لا تنقص من استقلال أجزاء الامبراطورية كما لا تنقص عصبة الأمم من هذا الاستقلال

فاذا ما شرع فى العمل لهذه الغاية فان أربعة أمور تجب مراعاتها بنوع خاص : أولها أن توجد وسيلة للتشاور الدائم فى السياسة الخارجية تضمن اتحاد الامبراطورية كلها فى العمل داخل دائرة العصبة وبهذه الوسيلة يتسنى للامبراطورية (التى هى أكبر قوة لنشر لواء السلم فى العالم) أن تضطلع بقسط كبير فى تقوية دعائم السلم العالمى . والأمر الثانى أن توضع سياسة مشتركة للدفاع الامبراطورى يمكن بواسطتها تنفيذ العهود التى يلقيها على عاتقها ميثاق العصبة ونشر لواء السلم والقانون فى الأصقاع الواسعة المتأخرة غير المستثمرة داخل حدود الامبراطورية . والأمر الثالث أن توجد وسيلة للتشاور والاتفاق على الطريقة التى تعامل بها الشعوب المتأخرة التى تكون الآن قسماً كبيراً من سكان الامبراطورية . ذلك بأن تبعة حكم هذه الشعوب المتأخرة يقع معظمها الآن على عاتق بريطانيا . غير أن أفريقية الجنوبية تقع عليها أيضاً تبعات كبيرة من هذا القبيل . كذلك انتدبت استراليا وزيلندة الجديدة بعد الحرب لادارة أرضين واسعة فى غانة الجديدة وجزائر المحيط الهادى . وتعانى كندا مشاكلها الخاصة فى كيفية

حكم الهنود الحمر فى غربها والاسكيمو فى شمالها . ومع أن الشعوب البريطانية أخذت على عاتقها هـذه التبعات العظيمة وهى إرشاد الشعوب المتأخرة ونشر المدنية بينها فانها لم تعن إلا عناية قليلة بدراسة المشاكل الناشئة من هذا الواجب دراسة علمية ، ولم تحاول الشعوب البريطانية أن تتبادل الرأى للاتفاق على المبادئ التى يجب أن تسير عليها فى تحضير هـذه الشعوب . وأخيراً إن الامبراطورية فى حاجة شديدة إلى اشتراك أجزائها فى العمل فى الميدان الاقتصادى . لقـد أخذت الشعوب البريطانية على عاتقها القيام بعمل كبير هو تنمية موارد أصقاع واسعة فى العالم ، لم تتم بعد ، حتى تنتفع الانسانية بهذه الموارد ، ولـكنها لم تعر هذا العمل ما يستحقه من العناية . وليس لها أن تعده مجرد وسيلة لاستغلال هذه البلاد أو تتركه للظروف والأقدار أو تكله لاشراف الاتحادات التجارية الـكبيرة غير المنظمة بل يجب عليها أن تفكر فيه وتنظمه على قاعدة تعاونيـة بالاتفاق مع جميع الدول الداخلة فى دائرة الامبراطورية والتى تشترك معها فى تحمل تبعتـه كما أن عليها عنـد ما تقوم بهذا الواجب أن تراعى جانب العدل فى معاملة الشعوب الهمجية

إن المجال لا يتسع هنا لبحث ما يتبع من الوسائل فى أداء هذه الواجبات أو الأداة اللازمة لأدائها ، ولـكن الذى لا مرية فيه أنه إذا لم يشرع العاملون على تنمية موارد الامبراطورية فى عملهم بمثل هذا الروح الذى وصفناه وهم عالمون بما فى وسعهم أن يصلوا إليه بمجهودهم ، إذا لم يفعلوا ذلك فان الأمل قليل فى بقاء الامبراطورية البريطانية كهيئة سياسية عاملة . لقد أخذت هذه الامبراطورية تسير بعد الحرب نحو الانحلال السلمى بخطى سريعة ، وإذا ظلت تسير فى هذه السبيل كان ذلك دليـلاً على افلاس السياسة البريطانية

ولقد كان من نتائج شعور الأمبراطورية بحاجتها الى سياسة تعاون قوميـة أن وضعت عدة اقتراحات ترمى كلها الى تدعيم وحدتها بتقوية الروابط المـالية بين أجزائها المختلفة . ومن هذه الاقتراحات أن تترك الأملاك المستقلة والهنـد سياسة الاكتفاء بالنفس من الناحية الاقتصادية أو تعدلها بعض التعديل على أن تعود الامبراطورية مجتمعة الى السياسة التى كانت تسير عليها بين عام ١٦٦٠ وثورة المستعمرات الأمريكية فتبدأ بإقامة سياج جمركى حول الامبراطورية كلها بصد تجارة البلاد غير البريطانية ثم يتبع فى داخل هذا السياج بالتدريج نظام التجارة الامبراطورية الحرة . ويرجو أنصار هذا الرأى أن تؤدى هـذه الوسائل الى تمكين الامبراطورية البريطانية بصفة عامة من الاكتفاء بنفسها وهو ما تعجز عنه بريطانيا وحدها بطبيعة الحال . وبذلك تصبح الامبراطورية وحدة مالية على نمط الولايات المتحدة الأمريكية وتحقق الفكرة التى يدعو إليها بعضهم لتكون علاجاً لـما نزل بأوربا من الـكوارث وهو انشاء ولايات متحدة أوربية وان كان الأمل فى تحقيق هذه الفكرة ضعيفاً . على أن الصعاب القائمة فى وجه هـذا المشروع البريطانى كبيرة جمة . منها أن الأملاك المستقلة والهند لم تظهر دليلاً على استعدادها لترك سياسة الاكتفاء بالنفس التى تسير عليها أو تسمح بدخول البضائع البريطانية التى تنافس منتجاتها الى بلادها ، ومنها أن الرخاء الذى تتمتع به معظم البلاد التابعـة للامبراطورية ناشئ من قدرتها على الاتجار بكامل حريتها مع جميع بلاد العالم وأن الأمم التجارية الأخرى تعارض فى نقص هذه السياسة . وزيادة على ذلك فان المعاهدات تحتم على كثير من الأملاك البريطانية وبخاصة ما كان منها تحت الانتداب أن تسوى بين بضائع جميع الأمم فى بلادها وحتى إذا أمكن التغلب على هـذه الصعاب فان كثيرين من الناس يعتقدون أن الامبراطورية إذ استحالت وحدة مالية مستقلة عن غيرها أصبحت سبباً للاحتكاك والحرب بدل أن تكون عاملاً من عوامل السلم ، وإن اتباع سياسة الاكتفاء بالنفس والاستقلال عن الغير الى هذا الحد الـكبير يجر الخراب على العالم ، ومن الناس من يعتقد أن بريطانيا نفسها لا تستطيع وهى آمنة أن تغامر هذه المغامرة الخطرة فتضحى بثلثى تجارتها مع البلدان الأجنبية لـكى تنمى الثلث الباقى وهو تجارتها مع سائر أجزاء الامبراطورية

على أن الجدل الذى قام حول هذه المشكلة المالية لا يمت بصلة إلى المشكلة الأخرى الـكبيرة التى قد تطغى عليها المشكلة المالية وهى : هل يسمح أن تستمر عملية التفكك التى يلوح أنها أخذت تدب فى جسم الامبراطورية بعد الحرب دون أن تتخذ الوسائل لوقفها عند حد ؟ وهل تستمر الامبراطورية على أنها أخوة من الأمم لا يرتبط بعضها ببعض إلا برباط العواطف وأن يكون مافيها من أداة للتعاون أقل صلاحاً للعمل من أداة عصبة الأمم وهى الهيئة التى ليس بين أعضائها من الروابط ما بين أجزاء الامبراطورية ؟ أو هل يستطاع إيجاد وسائط للتشاور والاشتراك فى السيـاسة

مقطوعات شعرية

للأستاذ عبد الرحمن شكري

صلاح الحياة أم غايتها

قل كيف نحيا ولا تقل لى ... ما حكمة العيش والبقاء
فطلب للعلاء يحدو ... وآخر كله عناء
كم سأل السائلون قدماً ... ما الكون ما العيش ما الفناء
مسألة ما لها جواب ... وليس يُلفَى لها غناء
كساخط من طروق داء ... وتارك خلفه الدواء

ود الأسى

يا رفاقاً طالما أنستهم ... لذةُ العيش حزيناً ، يا رفاق
قد وجدت الصدق فى ود الأسى ... مِقَةُ اللذات كسب ونفاق

غبى ذكى

يا غبياً رأى الذكاء شقاء ... ورأى النحس أن يكون أريبا
أنت أذكى من الذكى الذى يحـ ... يا شقياً لكى يكون أديبا
وإذا كانت الغباوة نعمى ... فمن الحمق أن تكون لبيبا (١)

(١) للمعرى ولاسكندر بوب مثل هذا المعنى

الخارجية والدفاع وحكم الشعوب المتأخرة وما اضطلعت به من إنماء موارد البلاد الواسعة من غير أن يمس ذلك استقلال أعضائها الداخلى بحال من الأحوال ؟ إن هذا النظام إذا أنشئ لا يتعارض بطبيعة الحال مع الأغراض التى قامت من أجلها عصبة الأمم بل يقوى بناءها ويمكن أسبابها ، كما أنه لا يزيد فى أخطار الاحتكاك والنزاع إلا إذا اتبعت فيه سياسة العزلة التجارية . ولن يكون له إلا معنى واحد وهو أن أكبر إخاء من الشعوب المختلفة رآه العالم فى تاريخ حياته يستخدم ما يخوله التعاون من قوة فى استثمار موارد ربع أنحاء المعمورة وتهيئة هذه الموارد لخير هذا الاخاء ولخير العالم المتمدين كله ولترقية الشعوب المتأخرة

ليس بين المشاكل التى خلفتها الحرب وتركتها من غير حل أعقد من هذه المشكلة وأعصى منها على الحل .

محمد بدران

البصير الأعمى

يا قلب صبراً ولا تعتب على قسم
قد استوى الناس فى عتب على القسم
الحظ أعمى لدى من لم ينل أرباً ... وهو البصير لدى من فاز بالنعم

خطة الضعة

فى كل نفس من نفوس الورى ... شىء من الحقد وسوء الظنون
إن كذَّبَ المثنى على نفسه ... صدَّقَ من يزرى بفضل القرين
لذاك يُعلى الحب من نفسه ... إن هدَّ من فضلٍ بمدح قمين (١)
أكثر من إعلائه نفسه ... بأن يزكى النفس عند الفطين

ناجح

كل بِشرٍ منه فَخٌّ ... كل لفظ منه غدرْ
بلغ النجح بلؤم ... إن بعض النجح وِزْرْ

الكذب

للكذب فى الناس أوساط مُجَنَّحة
والصدق يسعى لديهم كالسُّلَحفاةِ
يهوون ما لا يسيغ العقل من كذب
وينبذ الحق من حرص المجاراة
كأنما الكذب ملح يستلذ به ... طهى الحديث وإشباع السخيات (٢)

اخفاء السريرة بالنطق

أتحسب أن الله أعطاك منطقاً
لتبسط من لغو الكلام على الصدق
وإن لسانا بين فكيك ناطق ... لاخفاء ما دون السريرة بالنطق
وتكتم ما قد يُظهر الوجه أمره ... بقولك قولاً باطلاً مشبه الحق

عجائب الحقد

عجبت للمرء فى بغض وفى مِقَةٍ ... هما العجيبان إن آخى وحين عدا
يرمى النِّفايةَ لا يبغى لها ثمناً ... حتى إذا ما حواها راغب حسدا
ويغفر الذنب من إحسان فاعله ... حتى إذا انفدت آلاؤه حقدا

فخر الناجح

قبيح نجاح المرء إن هو شانه ... بفخر فلا يقبُح نجاحك بالفخر

(١) جدير (٢) الأحقاد

تدق بها حب الشعير كما يستعمل نساء المدن الهاون النحاسى سهولة واعتيادا بغير عناء أو مشقة ، وكذلك كانت جازية أمها . والعجيب أن الشيخ الفانى كان يتناول ذلك القضيب باحدى يديه كما يفعل بعصاه يحركه ويدق به ، وكان عندهم عنزات لطاف يطلقونها بالنهار فى أطراف المزارع ، وتمشى الأم جازية تحرسها من بعيد فتجمع لها بعض الحشائش الجافة ، فاذا مر بها رجل من أهل القرى أسبلت نقابها الأحمر وتوارت حتى ينصرف الرجل وما كانت تكف هى الأخرى عن الغزل طول يومها

ولم يبق بالخباء إلا الفتاة سلمى الكاعب اللعوب ، تراها تغزل أحياناً وحيناً تطبخ الدشيش وتسقيه من لبن النوق ، ثم تملأ منه القدر الكبيرة وتجلس بعد ذلك ترقب الطريق كأنها على موعد مع أحد الناس

وكان بأحدى القرى القريبة من النجع فتى من سادات الأسر الكريمة بصعيد مصر ، مات أبوه عن ضيعة عامرة بالانعام وأنواع الدواب ، وبها أهراء حافلة بالغلال والأقطان ، واستقر الفتى حسان فى ضيعة أبيه مجداً دائباً فى الزرع والانبات حريصاً على مرضاة الفلاحين ، وقد اتخذ جناحاً من دار أبيه لسكناه مع أمه الأرمل المريضة ، وكف عن حياة السرف وكثرة الانفاق على الولائم والأضياف . وكانت له فرس شقراء من عتاق الخيل يركبها ويطوف بها بين المزارع فى كل صباح باكر وكل عشى

ومر يوماً بخباء رحاب فلمح سلمى تحلب عنزاتها عند باب الحظيرة ، فترنح الفتى على سرج فرسه من روعة حسنها وقوة فتنتها وجمال جيدها ، والتقت عيناهما لمحة قصيرة ثم أرخت قناعها وولت على استحياء ، وأكثر حسان من الطواف بخدرها كل غداة ، فكان يجدها منفردة عن أبويها ، وشجعه على التحديق فيها صمتها وجلوسها كل يوم عند كثيب خلف الخباء كأنها ترقب حضوره

وخرج حسان يطوف المزارع كعادته فى يوم شديد القيظ ، فساقته فرسه إلى باب الخباء ، فنادى أهل الدار يلتمس ماء أو جرعة من لبن الابل يتعلل بها ، وقابلته الأم عند الباب وقد أرخت قناعها الأحمر وسألته عن حاجته ، فلما طلب قدحاً من اللبن نادت ابنتها سلمى ، فجاءت تتعثر بأذيالها وهى حاسرة الوجه تبهر الناظر بحسنها وملاحة قدها ، ومدت اليه يمينها بالقدح فترجل حسان لدى الباب وقد سنحت له الفرصة فرآها عن قرب ولمس كفها ، وطالع فى غرتها آية الحسن الذى لم ير مثيلاً له بين بنات القرى ولا فى سائر البنادر التى زارها ، وابتسمت سلمى من رؤية محبها وقد أذهلته الفتنة وشغفه حبها وملأت ناظريها منه ، وكان فتى حسن الهيئة والثياب ، ثم ارتدت الى البيت وتوارت عن ناظريه

وأراد حسان ألا تضيع الفرصة ، فسأل الأم أن كان لديهم بعض من صغار الخراف ليشتريها ويحملها إلى المزرعة بين دوابه وأغنامه ، فأنعمت الأم وغابت عنه قليلاً ، ثم عادت تسوق بين يديها حملين صغيرين ، وجاءت على أعقابها سلمى تسوق حملين آخرين وساومهما حسان ونقدهما ثمناً معجلاً فى الخراف الأربعة ، ثم بدت له مشكلة حمل الخراف إلى قريته ، فهونت عليه جازية الأمر وساقت بين يديها الخراف تساعدها سلمى ومشى حسان بين المرأتين يحدثهما طول الطريق ويختلس النظر إلى سلمى التى ما كانت تضن عليه بعطفها وابتسامها ، وبلغوا المزرعة فأدخل الخراف فى الحظيرة ثم قدم لجازية وسلمى طعاماً شهياً من موائد أهل المدن بين دجاج وشرائح من لحم مشوى وخضر مطبوخة ، وصحفة كبيرة من الحلوى بهر بها أبصار ضيوفه ، ثم حمل إليهما النقل والفاكهة ولم يدع مزيداً من واسع الكرم وطرائف النعم .
وخلا حسان بفاتنته سلمى فى ساعة شغلت فيها جازية بالحديث مع أمه العجوز المريضة بأعلى حجرات الدار ، واشتفى المحبان فى خلوتهما ، وخطبها حسان لنفسه وحمل اليها من خزانته صرة من الحرير الأبيض فيها مائة جنيه من الذهب صداقاً معجلاً ليستحل بذلك عناقها ، ولكن سلمى نأت بجانبها أسى وأسفاً ، وأطلعته على همها الدفين ، فان أباها قد عقد العزم على تزويجها من ابن أخيه وهو كهل من قبيلتها ، له زوجتان وبنون وبنات ، وهو فوق ذلك قد جاوز سن الشباب ، فظ غليظ القلب ، رقيق الحال ، ومن أجل ذلك كله قد تنكد عيشها ، لأن أباها وأخاها « دياب » كلاهما ملح فى تزويجها من ذلك الرجل البغيض ، وقد أنذراها بالموت إن هى ترددت فى

القبول والرضى ، وبكت سلمى وغمرت وجهها في صدر محبها ، وضمها حسان وقال لها إني أشهد الله أنك ستكونين أهلي وهذا صداقك بين يديك ، وليقض الله فينا مشيئته ، واستسلمت له الفتاة وتعاهدا أن يدعو في الصباح مأذون القرية ومعه شاهدان ليعقد عليها بغير علم من أبيها أو أمها

وما أشرق الصبح حتى هبط حسان إلى فرسه فامتطاها وانطلق بين أنفاس الربى يطير بجناحي شوق

وانقضت أشهر والحبيبان يلتقيان بالخباء في غفلة من رحاب وزوجه ، وكثر سروح سلمى تمشي الى زوجها في دجى الليل بعد أن ينام أبواها حتى ظهر الحمل وتحرك الجنين ولم يبق على الوضع إلا بقية من الشهر الأخير ، فرفع رحاب حاجبيه يوماً بكلتا يديه وظهر له ما كان مستوراً عنه من أمر سلمى ؛ فناداها : أنى لك هذا وما كنت بغياً ؟ وطار شرر الغضب والوعيد من مقلة الشيخ ، ففرت زوجته جازية بين الربى والآكام ، واستسلمت الفتاة المسكينة ، فقال أبوها خبريني عن هذا الذي في أحشائك من أبوه ، فقالت معاذ الله ما أثمت والله يا أبت ، ولكن بكتاب الله وسنة نبيه ، فقال هذا غاية ما بلغ اليه فجورك ، إن اليوم هو آخر أيامك من الدنيا ، فمن شريكك في الأثم ؟ من هو ذلك الذي انتهك حرمتي وفضح ربة الخباء ؟ لعله الفتى الذي يجوب الربى بفرسه الشقراء كل يوم ! لقد أغدق عليك من خيره يوم ابتاع منك الخراف . فصاحت سلمى باكية وقالت : بل هو سيد كريم قد مهرني مائة جنيه من خالص الذهب وأغدق علي ألواناً من الثياب والعقود والجوهر الكريم ، ودخلت الخباء ثم عادت تحمل بيدها صرة من الحرير الأبيض بها صداقها وقالت هذا هو المهر الذي استحل به عناق ، فصاح بها أبوها سأرد اليه هـذا الذهب وأنال به مهراً أغلى وأشد خطراً يجرى من دمه فأغسل به باب هـذا الخدر . فصاحت سلمى : يا أبت إنني وحدي الأثيمة فاقتص مني دونه ودعه بالله وشأنه فانه الوحيد المرجى لأمه المسكينة . لقد مات أبوه رمياً بالرصاص في ظروف محزنة ، ولم يبق من أسرته إلا هو . دعه يا أبت يعش ويستوف نصيباً من نعمة الدنيا ، فصاح بها أبوها أن احملي الى قضيب الجرن ، فنكست رأسها وجرت مدامعها وقد لاح لها ملك الموت ، وأسمعها أبوها فاستكانت له ، فهوى بالقضيب يقصم ظهرها ويفري حشاها صدعا شـديداً وضرباً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وتراخت يداها وأخذتها غشية الموت ، فناولها جرة المـاء وصاح بها لتحملها إلى غدير الماء ، وتملأها غلواً في قتلها وإرهاق نزعة الموت الأخيرة فيها ، ودفعها بيده وهي تحبو إلى الغدير حبواً حيث فاضت روحها ، فركلها أبوها الوحش بقدمه فحملها المـاء إلى الشط . وصاح الناس قتيل بالشط ! فأقبل العمدة وجنوده وعرفوها سلمى ابنة رحاب ؛ واحتشد الناس في أقصى المزارع حول جسد مسجى في إزار من الحرير الأبيض يبين منـه وجه حسان وقد مزقت أحشاءه قذائف الرصاص ، وتدلى من إزاره صرة من الحرير الأبيض بها مائة جنيـه من الذهب الأصفر ، حولها مائة قطرة من الدم الأحمر الزكي الشهيد !

ابراهيم جلال

ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفدون على مهل . ونفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا فى حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات ، والتفانى فى الوثوق بالنفس ؛ ثم نظر اليه نظرات ذات معنى وقال : « أيضيرك أن تستعينهم على مرضك ووحدتك ؟ » فقال الفتى : « لا ضير ؛ غير أنى أريد أن أفجأهم بالخبر » قال الشاب « أفتراني أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر ؟ » قال : « ولِمَ لا وقد عرفتك منذ نشأتى تفيض عطفاً وحناناً ، وتسدى النصيحة خالصة للحب وللقرابة ، وتنير لى طريق الحياة بحكمتك فأسير فى سنا ضوء عقلك . لقد كنت لى جماعة فى فرد . والآن ... والآن أريد أن أعرفك فى مرض . » فصمت الشاب وقد حمّله الفتى العبء وحده ...

* * *

وحمل البرق رسالة الشاب « فتاكم فى مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم ، لا خوف ... » ثم انطلق الشاب يحمل الى مريضه خبر الرسالة

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم ؟ لقد كانت وخزات الجرح تنفذ الى قلبه فى مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها فى ثبات وصبر ، وعلى وجهه علامات الضجر ؛ وكان العَرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه . واربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام ، وتتناهبه الأسقام ، ثم ابتسم فى رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آهاته العميقة ، ولكنه كان يجهد نفسه ليرتد اليه جهده خائباً مخذولاً

وفى أنة المحزون انقلب المريض الى ابن عمه الشاب يقول : « ماذا فعلتَ ؟ ما ذا فعلتَ ؟ انى أريد اخوتى وأعمامى وأهلى ... آه ما شعرت بالوحدة كاليوم ... ! » ورن صدى هذا الصوت الضعيف فى قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له ...

* * *

ومضى يوم ويومان وثلاثة ... ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع ، وتنفرج فى قلبه صدوع وصدوع ، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه ؛ ولم يستشمر الحنان الا من قلب هذا الشاب الذى يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها الى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل اليه — فيما يحمل — هدية صغيرة ، تنتزعه حيناً من أفكاره المظلمة ...

واستطاع الفتى أن يجلس الى ابن عمه يحدثه : « ما ذا جرى كأنك لم تقص على أهلى خبرى . لقد مضى أسبوع ولم يزرنى سواك . انك تملأ قلبى سلوة وعزاء بجمال جلساتك القصيرة ، ولكن ... » وراح الشاب يتلمس لأهله الأعذار : « من ذا يستطيع أن يقول سأفعل ... لعل حادثاً لم يترام الينا خبره حال بينهم وبيننا ... واضطربت الكلمات على شفتى الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره ، وحين أراد أن يقول له إنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم ما عاقهم عن أن يسرعوا اليه . اضطربت الكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول : « أن لا عذر . . . لا عذر اليوم ! » وكان يرى فى إبطائهم استخفافاً وامتهاناً ، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عينى الفتى ستاراً من الوهم . وما كان للفتى أن يسمع ، وان سمع فما كان له أن يصدق ، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو الى نفسه ، وهو وحده يحس ألم الصدمة . لقد أراد أن يفجأهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم . وتماثل العليل للشفاء ، وهمّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً . يا ويح هذا الفتى ! لقد راح يطلب الشفاء من علة فى جسمه ، فملأت الأيام قلبه عللا سلبته لذة الشفاء

* * *

وجلس الفتى الى عمه يعاتبه : « أفكان من العطف أن أنبذ فى حجرة ، وحيداً ، متألماً ، مريضاً ، أقاسى ما أقاسى فلا أجد منكم من يزورنى أو يكتب الىّ ؟ لقد كان أبى منكم بالمكان الذى تعرفونه ، وكنت من أبى من تعرفون ؛ أفلا ترعون حقه فى ابنه الملقى على سرير فى حجرة موحشة لا يجد من يواسيه الا ابن عمه الشاب ؟ » وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر : « لقد حجبنا عنك موت احدى قريباتك» وانطلق الفتى يقول : « لقد سعيتم الى الميت وقد انتهى ، ولبثتم حول قبره أياماً تبكون ، لتتركوا الحى الذى لا هو بالحى ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فما يجدها . أفبعد هذا تزعمون ، وتزعمون ... ؟ » وسبقت زلة من لسان العم : « ولكن ... ان لك لمنات ! » فأسقط فى يد

الفتى أن سمع عمه يتشفى ، وآلمه أن ينتقم أهله . لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل ، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن الى بعض عطفهم ، وما كان لهم أن ينبذوه فى الهاجرة وهو المشوق الى فىء ظلهم . أى أهل ؟ وأى انسانية ؟ واندفع الفتى المغيظ : « هذا وقت تنسى الهنات ، وتنطوى الزلات . ان لى لهنات لأنى لم أبلغ سنّ العقل ، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة . ولقد كفانى أن تبدى لى الأيام ما كان خافياً ، وان تكشف لى الشدائد عن أشياء كنت أجهلها ، وعن أخلاق ظننتكم تترفعون عنها ... »

ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك ، وترقرقت فى عينيه عبرة حبستها الكبرياء فما تبرح ، غير أن أحزانه ثارت فى نفسه فقال : « لقد ظننتكم أهلى ، وركنت اليكم لأنكم أهلى ، وشمت الخير فيكم لأنكم أهلى . أما الآن فيا خيبة الرجاء ويا ضيعة الأمل ! »

ونزت فى العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد فى اللوم ، ويعاتبه فيسرف فى العتاب ، وألمّ أن يقع بينهما تنابذ ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة فى بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاقبه أهله على غير جريرة ، فى جفاء وغلظة ، فرجع الى نفسه يحدثها ويرغمها على أن تلقى السلم ، فألقت واضطربت الخواطر فى رأس الفتى ، فتركته موزعا ينحى على نفسه باللائمة أن قل ..

ولشد ما آلمه أن يكون هو ابن أبيه ، ووحيده ، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد ، والأمل الباسم فى شيخوخة الشيخ وهو يدبّ على عصاه فى طريق الفناء ؛ ثم يرى أهله ينبذونه فى مستشفى ، ملقى على سرير ، فى حجرة موحشة ، لا يأنس الا بوجه ابن عمه الشاب عصر كل يوم ، ثم هم يغلظون له فى الحديث ، ويشتطون فى العقاب . ولشد ما أحزنه ألاّ يكون له فى هذا العالم الا ابن عمه يحنو عليه ، وينظر اليه نظرات فيها العزاء وفيها السلوة ، ويدخل الى نفسه بكلام فى رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه ؛ وهو كان يرى — عن كثب — الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق اليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه ، ويعطفون عليه ، وينزعون عنه آلامه وأحزانه . أما هو ... أما هو ... !

وتناهبته الآلام : آلام المرض ، وآلام الوحشة ، وآلام عزوف أهله عنه ، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه فى منديل

* * *

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز فى نفسه ، وتمض على قلبه حين رأى قلوباً تأ كلها أحقادها ، وعقولا تمصف بها ترّهاتها ، وضاقت الدنيا فى عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع ، فهام على وجهه يطلب الفُسحة فى أرض الله ...

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيرا ينزح عن وطنه ، ويهجر أهله الى حيث تتقاذفه مطارح النوى ، الى حيث لا ينبض لذكره قلب ...

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة ، ورسمت على فوديه آثار حادثة مروعة استقرت فى خياله فما تريم ، لقد سكن الى وطن وأهل غير وطنه وأهله ، وقلبه ما يزال عند الساعة التى أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكى ويبكى ...

ليتك نسيت أيها النزوى فى ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضى ، ليتك نسيت أنك كنت ... !

كامل محمود حبيب

البريد الأدبي

كتاب جليل عن مستقبل الديموقراطية

تثير نظم الدولة والحكم اليوم كثيراً من الاهتمام ، ويتساءل الساسة والمفكرون فى مختلف أنحاء العالم ، أيكون المستقبل للديموقراطية أم يكون لتلك النظم الجديدة الطاغية التى تستتر وراء فكرة الدولة وتقضى على كل الحريات الدستورية ؟ وقد صدر أخيراً بالفرنسية فى هذا الموضوع كتاب جليل الشأن عنوانه : « الفوضى أو السيادة المطلقة ، أزمة الديموقراطية ، وحلها » « Anarchie ou Hierarchie. La Crise de La Democratie » بقلم السنيور دى مادارياجا سفير اسبانيا فى باريس ومندوبها لدى عصبة الأمم ، وهى خلاصة المحاضرات التى ألقاها فى معهد الدراسات الخاصة بالثورة الفرنسية بجامعة السوربون منذ سنة ١٨٣٣

والسنيور مادارياجا من أعظم ساسة أوربا المعاصرين ، ومن أعظم الكتاب الدوليين ، وهو ديموقراطى بالفطرة لا يدخر وسعاً فى الذود عن الديموقراطية بقلمه ولسانه ؛ وهو يقول لنا فى كتابه إنه لما رأى القوى الخصيمة تثب وتناوىء الحريات الديموقراطية ، ورأى الحرية نفسها تضعف وتتضاءل ، رأى أن يبحث ما إذا كان من المستطاع أن ننظم ديموقراطية الغد وننقذها

ويرى السنيور مادارياجا أن فهم الحرية قد تطور جداً عما كان عليه أيام روسو ومونتسكيو ، وأن الحرية قد غدت بالنسبة لبعض الأفراد عبئاً لا يراد حمله ، وأن المساواة غدت فى نضال مستمر مع أنواع الايثار التى تقوم على النظام الطبيعى ، وأن الديموقراطية القائمة على سيادة الشعب غدت من التعقيد بحيث تخرج عن طاقة الفرد وسلطانه

ويقول لنا إن عوامل التأثير والتعقيد فى الديموقراطية المعاصرة ترجع إلى الرأسمالية التى أصبحت كابوساً على العمل ، والمالية التى تسخر كل القوى لصالحها ؛ وقد غدت القوى المنتجة فى الأمة معتركا من النضال المستمر ؛ وأضحت الفكرة القومية فى نضال مستمر مع النزعة الدولية ؛ بيد أن ذلك كله لا يعنى أنه يجب على الأمم أن تترك قوى الحرية السياسية التى تغذيها المبادىء الديموقراطية ، بل يجب عليها بالعكس أن تحاول تنظيم هذه القوى بأسلوب جديد

ويحاول السنيور مادارياجا أن يعالج هذه الأسس التى يجب أن تقوم عليها ديموقراطية الغد ، ويحمل بكل قوة ومنطق على النظم الطاغية التى تحاول أن تجعل الأمة فوق الفردية . وفى رأيه أن الدولة لا حق لها أن تجعل من نفسها نهاية مقصودة ، وأن الفرد مرتبط حتما بالمجموع ، وأنه يجب وضع قاعدة للتوسط بين الحرية والسلطة

ثم يعالج السنيور مادارياجا بعد ذلك الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التى يجب أن تتذرع الديموقراطية بها لتحقيق مبادئها

وقد أثار كتاب السنيور مادارياجا كثيرا من الاهتمام والتقدير فى دوائر السياسة العليا ، ودوائر عصبة الأمم التى يعتبر من أقطابها

المهرجان الألفى للمتنبى فى المجمع العلمى العربى

أرسلت كتابة سر المهرجان رسائل الدعوة الى أشهر رجال العلم والأدب من الفرنجة والعرب والى الجامعات العلمية لترسل من يمثلها فى موسم التنبى الذى يفتتح فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليه الحالى ويستمر الى آخره . وقد أخذت رسائل التلبية تتوارد الى المجمع العلمى فندبت الجامعة المصرية الأستاذ أحمد أمين ليمثلها رسمياً فى المهرجان ، وندبت الجامعة الأمريكية الأستاذ أنيس الخورى المقدسى لتمثيلها ، وندبت الجامعة السورية الأستاذ الدكتور مرشد بك خاطر عضو المجمع العلمى لتمثيلها ، وندبت جامعة عليكرة الهندية الأستاذ عبدالعزيز الميمنى الراجكوتى . وسيمثل القطر المصرى مع الأستاذ أحمد أمين الأستاذ عبد الوهاب عزام ، ويمثل العراق الأستاذ طه الراوى عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سر مجلس الأعيان ، ويمثل لبنان الأستاذ الدكتور نقولا فياض ، وفيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحانى

عضوا المجمع العلمى العربى ، والأستاذ حليم دموس الشاعر المعروف ؛ وينوب عن جبل عامل الأستاذان أحمد رضا وسليمان ضاهر وكلاهما عضو المجمع العلمى العربى ، وينوب عن حلب الشهباء شاعرها الأستاذ عمر أبوريشة . ولا يتسع المجال لتعداد جميع ضيوف المهرجان من أعيان البيان

وقد قررت اللجنة العامة فى جلسة الاثنين المنصرمة أن يكون يوم ١٧ يوليه الحالى آخر يوم من الأجل المضروب لقبول الخطب والقصائد ، وذلك لكيما تتمكن اللجنة من تصنيفها وتوزيعها على أيام أسبوع المتنبى

واللجنة العامة تشكر المفوضية العليا على منحها مبلغ (٣٠٠) ليرة سورية اعانة للمهرجان ، كما تشكر مدير المعرض الصناعى الأستاذ عارف بك النكدى عضو المجمع العلمى لمساعدتها بمبلغ (٣٠٠) ليرة سورية ، وكما تشكر محافظ مدينة دمشق الممتازة الأستاذ توفيق بك الحيانى الذى قرر أن يسمى الشارع الجديد المجاور لدائرة التبليك باسم (شارع المتنبى) وذلك يوم افتتاح المهرجان

سجون سيبيريا

كانت سجون سيبيريا منذ الحكم القيصرى دائماً مثار الروع والرهبة ؛ وقد أوحت شناعتها وهولها إلى كثير من الكتاب الروس كتباً وفصولاً مؤثرة مروعة ؛ وللكاتب الروسى الأشهر دستويفسكى الذى قضى ردحاً من الزمن منفياً فى هذه السجون الهائلة كتاب ساحر مؤثر عنها اسمه « دار الموتى » يصف فيه هولها ، وما يقاسيه المسجونون فيها من ضروب العذاب والويل ، وقد نسى الناس اسم سيبيريا ونسوا سجونها مذ قام الحكم البلشفى فى روسيا ، ولكن الحقيقة أن السجون السيبيرية ما زالت جحيم المحكوم عليهم فى العصر الجديد كما كانت أيام الحكم القيصرى

وقد صدر أخيراً بالألمانية (وصدرت له ترجمة انكليزية) عن سيبيريا وسجونها الهائلة عنوانه « القرية المنسية » « Der Vergessene Dorf » ، بقلم ضابط ألمانى أيام الحرب الكبرى يدعى تيودور كروجر ؛ والكتاب مؤثر مروع معاً ، وفيه يقص مؤلفه كيف أسر فى الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فى روسيا ، وكيف حاول الفرار فقبض عليه وسجن ؛ ويصف لنا المؤلف روعة هذا السجن الأول ؛ ويكفى فى وصف هوله أنه كان عائشاً فى الظلام الدامس ، وأن الماء القذر كان فى معظم الأوقات يغمره حتى كتفيه ، ثم أخذ الأسير الى سيبيريا مصفداً فى الأغلال الثقيلة ؛ وبعد حين أفرج عنه ، واستطاع أن يكتب الى ألمانيا وأن يستحضر بعض المال ؛ وهنالك ، فى منفاه الثانى تزوج من فتاة منغولية ، وتذوق بعض السعادة ؛ وساعد فى تنظيم مسألة الأسرى الألمان ، واستطاع أن يرتب لهم أعمالاً ، فاحترفوا الخياطة والنجارة والنقش وغيرها ، وأسسوا قرية صغيرة ؛ أما هو فاحترف تجارة الفراء ، وحسنت حاله ، ولكن الثورة البلشفية نشبت فى سنة ١٩١٧ ، فاضطربت الأمور ، ونسى الأسرى الألمان من العالم كله ، وهلك كثير منهم من الجوع والأوصاب وكان حظ المؤلف أتعس حظ ، فقد قتلت زوجه وولده بيد أحد أعدائه ، فى نفس الوقت الذى عقد فيه الصلح بين ألمانيا وروسيا

والكتاب ساحر مؤثر برغم روعة حوادثه ، وفيه يدلل المؤلف على معرفة وثيقة بأسرار النفس الروسية ، وأحوال سيبيريا المجهولة

مجلة المجلات العالمية

شعرت الصحافة الانكليزية أخيراً بحاجتها إلى التوسع فى معالجة المسائل الدولية ، بعد ما وصلت اليه من التشعب والتعقيد ، ولم يعد يكفى أن تعالج بصورة محلية ؛ وقد تصدى لتحقيق هذه المهمة صحفى وكاتب سياسى كبير هو المستر فرنون بارتلث ، الذى ابث زهاء عشرين عاماً مراسلاً سياسياً لكبريات الصحف الانكليزية ، والذى ما زال محرراً للشؤون الخارجية فى جريدة الديلى تلغراف ، فانشأ مجلة سياسية كبرى تصدر كل شهر بعنوان « مجلة المجلات العالمية » World Review of Reviews ، وهى فى الواقع ادماج لمجلتين شهيرتين : الأولى « مجلة المجلات » التى أسسها الصحفى الكبير مستر ستيد فى سنة ١٨٩٠ ، ومجلة « العالم » التى أنشأها مستر بارتلث فى سنة ١٩٣٤ ، وستعنى المجلة الجديدة بمعالجة أهم الشؤون الدولية ، ومسائل عصبة الأمم التى يتفوق مستر بارتلث فى دراستها بنوع خاص ، وستكون مستقلة محايدة فى آرائها وتعليقاتها

وقد صدر العدد الأول من المجلة الجديدة مصدراً بكلمة للمستر انتونى ايدن وزير الخارجية البريطانية يقول فيها : « يسرنى

الكتب

رواية عمر بن الخطاب

تأليف الأستاذ معروف الأرناءوط

للدكتور منير العجلانى

أنا لا أصدق أن هذه التهاويل الثلاثة : الحب ، الطبيعة ، البطولة ، التى جمعها أستاذنا الأرناءوط فى كتابه الجديد « عمر ابن الخطاب » رواية ! ...

وإذا كان يحرص على أن يسمى « رواية » هذا العالم الذى أبدعه وشحنه بالأخيلة العجيبة والألوان النضرة والأنغام الحلوة فانى أستحلفه « بكريستيا » الذى يَنْحِتُ تمثاله ، و « فروة » الذى يقود رجاله ، و « نفتالى » الذى يندب آماله ؛ بل أستحلفه بهذه الغانيـة « بنيامينا » التى تسلب العاقل لبَّهُ ، والشجاع قَلْبَهُ ، وتنسى الوثنىَّ ربَّهُ ؛ بل أستحلفه بهذه الفتاة الصغيرة الخيِّرة « سافو » — شقيقة البدر وبنت السحر — أن يسميها رواية شعرية لا اجتماعية ولا تاريخية ، فانى نسيت الجماعات ونظمها ، والتواريخ وحكمها ، ورحت أنتقل على أجنحة كتابه من حجرة حب ، الى ساحة حرب ، ومن مأتم عبقرى ، الى عرس شعرى ، ومن صلاة الفجر الروحانية ، إلى مناجاة البخور الجثمانية ، وما أذكر أننى أحسست هـذا الحس الذى يكاد يكون مزيجاً من الصوفية واللذة إلا فى « خطبة مسينا » و « ايفجينى فى أوليس » و « بولس وفرجينى » و « أنا كارينين » و « البعث » و « أغانى بيليتس » و « بسيشه » وبعض أشعار « أوسكار ويلد » . . .

وأشهد أن فى أستاذنا الأرناءوط من هؤلاء جميعاً ، فقد نسج على منوال يونان والغرب فجاء بشىء لم تألفـه العرب لأنه جديد . ولكنها لم تنكره لأنه جميل ، وصاحبه لا يتهم بالنقل ولا التقليد لأنه صانع مبتكر ، ومتى ذكر الشعر فهو فى دنياه

نعم « عمر بن الخطاب » قبسة من شعوره وقصيدة من شعره ، ولكنها لا تشبه هذه البرك التى تقاس بالشبر وتنظم على

أن أبعث بكلمة ترحيب لهذا المجهود الجديد الذى يرمى إلى تهيئة الفرصة للشعب البريطانى ليطلع على ما يكتبـه وتراه الشعوب الأخرى فى المسائل الدولية

حماية النسل فى روسيا

كان من نتيجة الأنظمة والقوانين الاباحية التى سادت روسيا البلشفية فى الأعوام الأخيرة ولا سيما فيما يتعلق بالزواج والعلائق الاجتماعية ، أن ذاعت حوادث الاجهاض ذيوعا مزعجا ، وأخذت تهدد كيان الأسرة والأمومة فى روسيا ؛ وقد تبينت حكومة موسكو أخيرا خطر هذه الاباحة على مستقبل الشعب الروسى ، فأصدرت قانوناً جديداً خاصا بحوادث الاجهاض يسرى مفعوله منذ ١٥ يوليو الجارى ؛ وخلاصة نصوصه أنه (خلا الأحوال التى تتطلب فيها حالة المرأة الصحية اجراء عملية الاجهاض ، يحظر الاجهاض قطعاً ، ويعاقب الأزواج أو الآباء بعقوبات شديدة من السجن والغرامة إذا عاونوا على ارتكاب الاجهاض فى غير الحالة المصرح بها قانونا

وينص نفس القانون على أن الأسر التى تضم سـتة أولاد فأكثر تمنح إعانة من الحكومة ؛ وفى حالة الطلاق ، يلزم الوالد بدفع ربع مرتبه أو إيراده للزوجة إذا كان له منها ولد ، فاذا كان له ولدان فرض عليه الثلث ، وإن كان له منها ثلاثة أولاد فأكثر فرض عليه أن يدفع للزوجة نصف المرتب أو الايراد

وقد رأت روسـيا السوفيتية أن تتشبه فى ذلك بالدول التى تعنى بمسألة النسل والاكثار من السكان مثل إيطاليا وألمانيا حيث تتخذ حماية الأمومة والنسل أهمية خاصة

أشكال هندسية بل هو نهر يجرى : يركض ويتباطأ ، يهبط ويصعد ، يستقيم ويلتوى ، ولكنه يذهب بعيداً . . . وفى مائه الرقراق يستحم الطير وتستنقع العذارى ، ويرتوى النعناع ، ويرف الحصى ، وبالجملة تحيا الحياة

أيهما أشعر ؟ البركة أم النهر ؟ « عمر بن الخطاب » أم الشعر ؟ ما أدرى ؛ ولعل الرواية — إذا كان عمر بن الخطاب رواية — أشعر من الشعر ! على أن عمر بن الخطاب ونحن فى حديثه ، لم يعط الجزأين الأولين من الرواية أكثر من اسمه ... فهو يمر فى الأول كخطفة البرق ، ويهم فى الكتاب الثانى بالظهور . ولابث تصغى اليه وتجلس بين يديه فى الكتابين الموعودين ، أما الآن فأنت فى عالم الحب ؛ فلا تقل وقد استنمت إلى أنغامه المدهدهة أين نحن من دنيا ابن الخطاب ؟ وما علاقتنا به ؟ عما قريب تلتفت إلى « سافو » التى لم تكن تعرف من العرب إلا أحبيبها ، فتسمعها تحدثك عن رعاة الغنم ، الذين ملكوا رعاة الأمم ، والبدو الذين علموا الحضارة الحضر . . . والعقيدة التى غلبت القوة ، وحينئذ تدرك السر الذى نشده الأستاذ الأرناءوط ، فهو يريد أن يقفنا فى هذا الصراع القائم بين العرب والرومان على لونين من الحب : حب السماء وحب الأرض ، وعلى رسالتين : رسالة العاشق ، ورسالة المجاهد ؛ وعلى دولتين : دولة الطبقات ، ودولة المساواة ، وإذا كان فى الأدب الفرنسى كتاب أسماه صاحبه — شاتوبريان — « عبقرية النصرانية » وأراد أن يعرض فيه دينه فى أحسن معرض ، فانه يخيل إلى أن الأستاذ الارناءوط سائر فى هذه الطريق. فما « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » إلا فصول فى كتاب سنطلق عليه ذات يوم اسم « عبقرية الاسلام » أو إذا شئت « عبقرية العروبة »

أيها القارئ ! ضع شارة تحت جملة بارعة فى الجزء الأول من « عمر بن الخطاب » « أى قدر سعيد ألقاك فى طريق يا من يهيمن على حياتى ؟ » فانه قدر سعيد حقاً .. أن تعيش فى عالم « كريستيا » و « بنيامينا » و « سافو » و « فروة » و « نفتالى » ، قدر سعيد أن تعيش تحت سماء « كأنها لفرط الضياء جنة من اللؤلؤ » وأن ترى الى « كريستيا » يلتمس حبيبته فى الحلم ولكنه « لا يجرؤ أن يمس وهو سادر فى وهمه جسدها المترنح مخافة أن تفوته لذة هذا الوهم » وأن تستمع إليه ينشد بين يديها : « لقد رأيتك فى ذات ليلة أمام المرآة تريقين على جسدك العارى عطور النارنج ، ورأيتك تغسلين فخذيك الناعمتين بعطر الورد ، ثم رأيتك تصبين على نهديك عطوراً حملها إليك محبوك من مصر وفينيقية والشام ، فوددت لو أنك تبدلين طيوبك بطيب آخر لم تحفل بمثله أرض فينيقية ذات السماء المصحية ، ولا جنات مصر الضاحكة على ضفاف النيل ... بطيب انبعثت رائحته فى نفسى » . . . ثم اخرج من عالم الحب الى عالم البطولة وانظر الى « فروة بن عمرو » يعلق على الصليب فى سبيل الرسالة ، واستمع الى أغانيه العلوية ! ...

ولكن ما أكثر الصور والألوان الحلوة فى هذا الكتاب ؟ بل أية صورة أستطيع أن أقول إنها أقل جمالاً من غيرها فأزهد فى نقلها ؟ !

* * *

مطالع الكتاب كله وقل معى

بورك فيك يا أستاذنا الأرناءوط ! بورك فيك ثلاثاً باسم الحب وباسم الشعر وباسم البطولة ... وبورك فيك باسمنا نحن الذين وهبت لنا ساعات لذيذة ودنياوات حلوة

أى مؤلف « عمر بن الخطاب » !

سوف ألقاك فأراك غير ما كنت أراك لأنك ستسير دائماً فى موكب من الأبطال الذين بعثت فيهم الحياة . وسنشعر جميعاً أن روحك ليست غريبة عن روح أبطالك ، فلولا أن سكبت فيهم من قلبك ومن فكرك لما كان كتابك خالداً

إن حياة كتابك من كتاب حياتك

حياتك الشاعرة !

منير العجلانى
رئيس تحرير القبس

وراء البحار

تأليف محمد أمين حسونه

بقلم محمود عزت موسى

أتيح لى منذ أيام أن أقرأ الكتاب الذى ألفه وأصدره أخيراً صديقى الأستاذ محمد أمين حسونه وأسماه « وراء البحار » ؛ وفى هذا الكتاب رحلة المؤلف إلى اليونان وتركيا ورومانيا والنمسا والمجر ، وقد عنى بطبعه عناية فائقة فجاء مثالا بديعاً للذوق الرقيق .

وليست هذه هى المرة الأولى التى أتيح لى فيها أن أقرأ للأستاذ حسونه ، فأنا أقرأ له منذ صدر حياتى الأدبية ، وقد التقت أقلامنا على صفحات السياسة الأسبوعية فى عام ١٩٢٩ وفى ذلك الحين أيضاً التقت صداقتنا ؛ ولقد قرأت له كتابه الأول « أشبال الثورة » ، وهى الرواية التى استهل بها أدبه القصصى ، ثم قرأت له « الورد الأبيض » ، وهى المجموعة القصصية التى جملته فى طليعة أدباء الشباب ، ولعلنى استطعت من خلال تلك القراءات كلها أن أتعرف إلى أسلوبه وأدبه ، ومن أجل هذا كنت أود أن أنصف الأستاذ حسونه أكثر مما أنصف نفسه هو فأقول بأن كتابه « وراء البحار » ليس فى الواقع إلا قصة طويلة لحياة شاعر فى خلال رحلة فنية إلى بلاد تاقت نفسه اليها .. واستقرت عواطفه فى أجمل بقاعها ، فراح يصفها لا بلغة المسافر ، ولكن بلغة الشاعر ، فلم يذهب فيما ذهب اليه الذين سبقوه فى وصف رحلاتهم ، ولكنه انتحى لنفسه منحى غير الذى ألفه الناس فيما قرأوا .. فلم يحاول أن يكتب عما شغل غيره من كتاب الرحلات فى الأوصاف التى يمكن للانسان أن يجدها بسهولة فى كتب السياحات ، ولكنه ذهب إلى تلك البلاد حاملاً بين جنبيه تلك النفس الطامحة المضطرمة شباباً ونشاطاً ، فتبدو فى بعض الصفحات مشبوبة حارة ملتهبة تفيض خيالاً وعذوبة ، والتى تغزوها الآلام والأحزان فتبدو فى انقباضة القلق الحائر . وإنه ليحلو لى أن أصف نفسية الكتاب ، ولا أتناول فصوله فصلاً فصلاً تناول الذى يمسك مبضعه ليقيم نفسه جراحاً — أو جزاراً — على عمل أدبى ، يحلو لى أن أصف نفسية الكتاب لأننى أعتقد بأنى قد ألفيت فيه وحدة فنية قائمة بذاتها ، ترتكز على شخصية واحدة ، هى شخصية المؤلف ؛ وهذه الوحدة الفنية تجعلنى أرى أن المؤلف إنما عمد إلى رحلته بدافع الاستمتاع الذهنى والقلبى فى وقت واحد ، فوفق . ولم تذهب هذه الشخصية عنه فى أية لحظة ، بل هو يصفها بدافع الاعجاب ، ولكن بشخصية ، أو بمعنى آخر بقومية ، ومن هنا ترتقى مكانة الكتاب عندى ، لأنه يقول فى معرض حديثه عن الأكروبول . . . « ولكن أين ربوات الأكروبول من ساحل طيبة الخالد على مر الدهور ، أو من مهابة الأهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلى ؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التى شيدتها وتقلت جلاميدها الصخرية الهائلة الأيدى السحرية العجيبة . . . . » أو عند ما يذكر « أذكر أنى قابلت فى أحد المطاعم (فى أثينا) جندياً فى الجيش كاد يبكى وهو يحدثنى بالعربية فى السعادة التى تنعم فى اعطافها يوم أن كان يعمل « جرسونا » بمقاهى القاهرة الكبرى . . . . » « ويستطرد فى القول » . . . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لأبناء هذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودوهم بأسلحة من العلم واستقامة الفهم ، فداناؤس وككرلس وفيثاغورس شهب ثاقبة فى سماء الثقافة الأغريقية ، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين .. » وكما يبدو فى حديثه عن الاسلام وسلاطين آل عثمان فى خلال وصفه لاستامبول ، وهذه الظاهرة الفريدة فى الكتاب تجعلنى أسجلها مغتبطاً

قد كنت أوثر أن يحدثنا — فوق ذلك — الأستاذ حسونه عن تلك البقاع التى زارها أحاديث تتناول صميم الحياة هنالك ، عن وسائل رقيهم ، وصناعاتهم ، ونظم الجمعيات العامة فيها ، والروح الفردية فى تلك الأمم ، ونواحى الضعف فى جماعاتهم ، وأسبابها ، والظواهر التى يلمحها فى أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وان يتناول بالبحث الانقلاب الكمالى من جذوره فى زيارته لتركيا ليصف ويقرر الحقائق التى لا يمكن للقارئ أن يجدها فى الصحف لاعتبارات شتى ، وأحسب أنه قد لمح الى ذلك تلميحاً خفيفاً فهل فعل ذلك عن عمد ؟ أحسب ذلك . ولكننى أرجو أن يوفق الى ذلك فى كتابه المقبل ، فى صراحة تامة ؛ فبلادنا فى عصر نهضة ، ولكن حطب هذه النهضة ، وكلما زدناها ناراً ازدادت اشتعالاً ونوراً وارتفاعاً ، ولن يكون ذلك إلا إذا أفرغنا فى سبيلها الجهد كل الجهد وعنينا بتوضيح كل ما يفيد هذه النهضة ويوطد دعاماتها ؟

محمود عزت موسى